التجربة الرهيبة

رواية

د. أحمد السعيد مراد

الفصل الأول

البحث الأخير

كانت السماء في تلك الليلة المظلمة التي غاب فيها القمر وأذن للنجوم أن تحل محله .. أشبه بثوب مخملي مزين بقطع من الماس المتلألئ ... وكأنما كانت تريد أن ترسل إلى الأرض بعضاً من تلك الماسات فقد أمطرت مطراً خفيفاً ...

وبالرغم من ذلك الظلام والبرودة والمطر ... والوقت المتأخر من الليل .. كل تلك العوامل كانت تحبذ كل فرد أن يأوي إلى فراشه متدثراً بالأغطية الكثيفة ...

إلا أن الدكتور "علام" كان على النقيض مستمتعاً بذلك الجو أيما استمتاع .. كانت الطرقات التي يصنعها ارتطام قطرات الماء بزجاج النافذة أشبه لديه بسيمفونية جميلة تطربه وتمتعه ...

وفي ذلك الجو الرائع بالنسبة إليه كان يجد في كتابة الصفحات الأخيرة من البحث الذي يعكف عليه منذ مدة ... والذي سوف ينشر في القريب العاجل عبر إحدى المجلات العلمية المتخصصة ...

فالدكتور "علام" بالرغم من تخصصه في مجال أمراض النساء والتوليد وبالرغم من عيادته الممتلئة دوماً ... إلا أنه لم يهمل في يوم ما تلك الأبحاث الهامة التي يقوم بها ... والتي رفعت من شأنه عبر الوطن العربي أجمع وكادت أن ترتفع به إلى درجة العالمية ...

وبعد قليل ألقى د. علام قلمه جانباً وجفف عرقاً وهمياً واستلقى بظهره على كرسيه وتنهد بعمق وقال .. ((هاقد أتممت بحثك يا علام .. وبذلك تنتهي من رحلة الخمس شهور الماضية .. وندعو الله عز وجل أن يكلل بالنجاح كسابقيه)).

وقام من مكانه بعد أن جمع أوراقه ووضعها داخل غلاف خاص بها ووضعها داخل حقيبته واستعد للخروج حاملاً تلك الحقيبة ... وخارج الغرفة وجد "أم حسين" ... تلك الممرضة العتيقة التي تعمل في عيادته منذ أن كان طبيباً شاباً ...

إنه لا ينسى أبداً كيف كانت بدايتها معه ... كانت مثقلة بحملها وشاردة بعد تهدم المسكن الذي كان يؤويها .. وزوجها وافته المنية منذ أشهر .. وصادفته عند ذهابه إلى عيادته ... كانت ترتكن بجلستها إلى أحد الجدران وتبكي بحرقة لا مثيل لها .. أثاره مشهدها بقوة فتوجه إليها وسألها عما بها .. فإذا بها تشكو من الجوع والبرد لأيام متصلة .. فرق قلبه لها واصطحبها إلى عيادته وأحضر لها وجبة دسمة تناولتها في شراهة ... وطلب منها أن تنتظر في عيادته حتى ينتهي من أعماله ... فإذا بها تساعد ممرضته آنذاك في أعمال كثيرة .. فعرض عليها العمل لديه وجعل لها حجرة لتقيم بها بصفة دائمة ... ومن يومها وهي تحمل بين جنباتها الإخلاص له والطاعة العمياء لكل ما يأمر به .

وشاء القدر أن يجعلها وحيدة أبداً ... فأصيبت بتسمم الحمل واضطر د. علام أن ينهي ذلك الحمل إنقاذاً لحياتها ... وها هي منذ اثنى عشر عاماً لا تعرف سوى د. علام ولا تبصر سوى عيادته ...

ألقى عليها السلام .. وسألها عما إذا كانت ترغب في أي شيء ... وانصرف تصحبه دعواتها الغزيرة ...

\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت الشمس زاهية والجو دافئ ... والكل ينطلق في نشاط واستمتاع بهذا الجو الممتع .. في تلك القرية المتاخمة لمدينة الأقصر بصعيد مصر .. ومن بعيد الزحام كان يشق طريقه وهو يحمل بكلتا يديه ما يحتاجه المنزل من مأكولات وأمتعة ...

إنه الأستاذ "يحيى عزام" مدرس اللغة العربية بالمدرسة الإعدادية بالقرية .. ذلك الرجل الذي يمتلئ إيماناً وحماساً ... إيماناً بالله وتعاليمه .. وحماساً لعمل الخير وكل ما هو نافع لبلده وخطيب المسجد الكبير بالقرية .. وقد تكون خطبة بهذا المسجد هي المؤشر البسيط الذي يبين ويكشف مدى حب الناس وتعلقهم به .. ففي كل خطبة يلقيها يكون المسجد ممتلئاً لآخره من اللحظة الأولى على العكس مع المساجد الأخرى .

وصل إلى بيته .. فطرق بابه بمؤخرة يده التي يحمل بها إحدى الحقائب ففتحت له زوجته "أسماء" الباب .. فرحبت به وحملت عنه بعضاً من أحماله .. وتوجها سوياً إلى المطبخ وهو يقول لها (كيف حالك يا أسماء ؟ .. وكيف حال حملك ؟ )

ردت عليه قائلة .. (الحمد لله .. أنا بخير .. ) وخيمت على وجهها سحابة حزن وهي تقول .. (أما حملي .. فكأني أريده لا ينتهي .... فالإحساس بأنه الحمل الأخير يجعلني أتمسك به ..) .

ربت يحيى على كتفها وقال .. (إنه قدر الله عز وجل يا أسماء .. ويجب أن نؤمن به .. وندعوه سبحانه أن يبارك لنا في ابنتنا "أماني" وهذا الجنين المقبل ويجعلهما ذرية طيبة صالحة إن شاء الله ..) .

هزت رأسها وقالت .. (إن شاء الله ..) وسرحت بذاكرتها إلى عامين مضيا .. وأخذت تتذكر حينما رزقها الله بابنتها أماني ... كان حمل أماني حملاً طبيعياً لم تشك فيه أبداً .. حتى أنها لم تفكر في متابعة هذا الحمل مع طبيب .. وكذلك كانت ولادتها ولادة يسيرة سهلة مع الداية "أم محمد" ... وها هي ابنتهما كل يوم يظهر عليها علامات الذكاء والنبوغ ... وحينما أتى الحمل الثاني الذي هي مثقلة به الآن .. مرضت في أوله مرضاً شديداً اضطرت أن تذهب إلى المستشفى بسببه ... وهناك ومن ضمن التحاليل الدورية التي أجروها لها ولحملها ... وجدوا أنها حالة خاصة من الحالات الطبية التي قل أن توجد ... فهي يوجد بدمها عامل "ريسيس" الفصيلة السالبة التي يطلق عليها "RH-ve" وزوجها يحمل الفصيلة الموجبة ... كان من الممكن ألا يسبب ذلك مشكلة لو تم اكتشافه أثناء الحمل الأول .. حيث يوجد عقار يتم إعطاؤه أثناء فترة الولادة يمنع مضاعفات تلك الفصيلة .. أما ولأنه لم يتم ذلك فقد تكونت أجسام مضادة بدمها ولم يعد من الممكن التخلص منها ... تلك الأجسام المضادة التي سوف تؤذي الحمل الثاني الذي إن مر سليماً ... فحتماً سيكون آخر حمل لأنه لا يوجد أمل في أن يكون الحمل الثالث سليماً ... أو يولد حياً ....

تنهدت أسماء في قوة وهي تتذكر ذلك ... وقالت (الحمد لله) .

\*\*\*\*\*\*\*

(حسناً يا عماد ... حدد لنا موعداً مع ذلك المندوب ... وسوف نتعاقد معه ... وبكل الشروط التي يطلبها ..)

نطق “شاهين الدمنهوري” بهذه العبارة مختتماً بها مكالمته .. وما أن وضع سماعة الهاتف .. حتى ارتكن بظهره على كرسيه الذي غاص به وارتسمت على وجهه ابتسامة ظفر ونصر ...

فها هي إحدى الخطوات الجديدة التي سوف ترتفع به وبمؤسسته الاقتصادية ... تلك المؤسسة التي أسسها مع طديقه "عمر" ... وبذلا سوياً من الجهد ما يفوق الخيال حتى صعدا بها إلى آفاق السماء ... وبعدها ... كفى أنهما افترقا .. قد يسمي البعض ما فعله بعمر غدراً ... ولكنه يعده نصراً ... لقد حاز المؤسسة وحده وتوج ملكاً عليها دون سواه ... بغض النظر عن بعض صفقاته المشبوهة إلا أنه حقاً ناجح في عمله ولا يضاهيه فيه مخلوق ...

وبسبب هذا التفرد والتفوق ها هو كل يوم يحوز مجداً جديداً وسيأتي من بعده ابنه الذي يرث اسمه ويرث هذا المجد مخلداً معه ذكر أبيه ...

وما إن وصل بفكره إلى هذه النقطة ... حتى نطق قائلاً (ولدي ... كم أشتاق لليوم الذي ستأتي فيه ...) .... ومد يده رافعاً سماعة الهاتف متصلاً بالمنزل .. فرد عليه أحد الخدم فلما سأله عن زوجته “سها” ... أخبره الخادم بأنها قد ذهبت إلى حفل راقص مع إحدى صديقاتها ... فعقد شاهين حاجبيه وقال .. (ماذا ؟! .. حفل راقص !! .. وفي هذا الوقت !!! ) .

وما إن أتم عبارته حتى أخبره الخادم أنها قد أتت .. فطلبها شاهين وعندما بدأ في محادثتها قال لها في حدة .. (ماذا دهاك يا سها ؟ .. ما هذا الحفل الراقص الذي تذهبين إليه وأنت مثقلة بجنيننا ؟! ... ألا تخافين عليه ؟!! ...) .

قالت سها في دلال شديد ... (ما هذا يا شاهين ؟! .. إنني أرفض أن تقيد حريتي ولو كان بسبب وليد لنا ... أبسبب حملي أمتنع عن كل متع الدنيا ؟ ) ...

قال شاهين في تودد ورجاء .. (لا يا عزيزتي ... لا أقصد هذا مطلقاً ... إنما أقول لك افعلي ما يروقك ... ولكن تجنبي كل ما فيه عنف كالرقص والجري وما شابه ... حتى لا تضري بالجنين الذي أنتظره بفارغ الصبر .. ) . قالت في دلال أشد ... (إذن ... أخبرني كيف أقضي وقتي ؟ ) .

رد عليها قائلاً .. (حسناً .. ما رأيك سأمر عليك الآن ونكمل السهرة في أي مكان يحلو لك ) .

قالت (حسناً ... ولكن أسرع قبل أن ينفذ صبري) .

قال لها .. (سأصل إليك أسرع من الريح يا حبيبتي ) .. وما إن وضع سماعته .. حتى تناول معطفه وانطلق مسرعاً ملبياً نداء زوجته المدللة .

\*\*\*\*\*\*\*

كان د. علام منطلقاً بسيارته والبهجة تطوق أنفاسه والشعور بالنشوة يملأ كيانه .. فها هي شهادة جديدة تشهد له بالتفوق والعلو .. فقد هز بحثه الجديد الأوساط العلمية المتخصصة .. والكل شهد له بالعبقرية ..

سرح ببصره عبر نافذة سيارته وأخذ يتطلع إلى المناظر الطبيعية بلذة واستمتاع .

منذ ساعتين وهو يجول بسيارته سابحاً في نشوته ... منذ أن خرج من قاعة المؤتمرات التي شهدت الإعلان عن بحثه الجديد .. وهو لا يرغب في مجالسة أو محادثة مخلوق ... فكعادته دائماً يفضل الخلوة مع نفسه والطبيعة .. فهذه اللحظات هي التي يتوق إليها مع كل بحث .. أخذ يحدث نفسه قائلاً .. (ها قد نجح بحثك الرابع والعشرون يا علام ... فهنيئاً لك .. ولكن يجب عليك أن تتم ربع المائة في أقرب وقت ممكن ..

ولكن ...

ترى ماذا سيكون موضوع البحث القادم ؟؟! ......

إن سر نجاحك أنك دائماً تطرق أبوباً لا تأتي على خاطر غيرك لذا ... وجب عليك أن تأتي بفكرة جديدة لم ترد على عقل سواك من قبل ... فترى ما هي ؟! .

إن البحث عن الفكرة هي أشق ما في الأمر ....

ولكن حتماً ستأتيني ... وها أنا أبحث عنها ... )

\*\*\*\*\*\*\*\*

كان يحيى يغط في نومه في حين كانت زوجته أسماء جالسة وممسكة بطنها ولا تستطيع أن تكتم أنينها ... كانت آلام شديدة تهاجمها وتقلق مضجعها .. ولم تكن ترغب أن تقلق يحيى ولكن شدة الألم أجبرتها إيقاظه .. فقام قلقاً وعندما علم ما بها ارتدى ملابسه على الفور ... وبالرغم من الساعة المتأخرة من الليل .. إلا أنه اصطحبها مسرعاً بها إلى المستشفى المتواضع المتواضع المتواجد بالقرية وهناك وجد الطبيب المقيم نائماً فلم يتردد في إيقاظه فقام يفرك عينيه .. وعندما علم بالحالة ... أسرع وأحضر أمبولين وأعطاهما لها على التوالي ... وأصر أن تبقى بالمستشفى هذه الليلة ... وبعد قليل كانت أسماء قد ذهبت في سبات عميق ... فتوجه الطبيب بيحيى إلى جانب خاص وأخذ يحدثه قائلاً .. (لا أنكرك القول يا أستاذ يحيى .. لقد كان هذا الحمل مهدداً بالفقد .. فيبدو أن زوجتك في حالة قلق مستمر ومتزايد ... وبسبب هذا القلق هاجمتها آلام الوضع مبكراً .. وبالطبع الجنين لم يكتمل نموه الآن ... وبالتالي لو لم تكن أسرعت بإحضارها لتم ميلاد ما في بطنها .... وبالطبع لم يكن ليعيش بسبب عدم اكتمال نموه ...

أما الآن ... فالحمد لله ... فقد حقنتها بأمبولين ... أحدهما يوقف انقباضات الرحم التي بدأت ... والآخر مهدئاً .. وها أنا معها الليلة لأتابع أي تطورات قد تحدث ولكن لي نصيحة غالية لك ...)

كان القلق لم يفارق يحيى بعد وهو يقول .. (ما هي ؟؟ ..)

رد عليه قائلاً .. (خطبك الرائعة التي تروي بها عطش نفوسنا وأسلوبك الجميل الذي تداوي به قلق صدورنا ... أرجو أن يكون لذلك أثر مع زوجتك .. لأن القلق الذي ينتابها يعتبر الخطر الوحيد الذي يهدد حملها ...)

تمتم يحيى قائلاً .. (إن شاء الله) .

أكمل الطبيب حديثه قائلاً .. (كما أطلب منك طلباً آخر ألا وهو أن يتم ميلاد هذا الطفل بالقاهرة ... )

رفع يحيى رأسه في دهشة قائلاً ... (ماذا ؟!!! ) .

قال الطبيب موضحاً .. (هذا الطفل بالوضع الذي هو فيه نطلق عليه اسم "طفل غالي" وله ظروف خاصة يجب أن تراعى في متابعته وعند ولادته .. وأقصى عناية من الممكن أن تلقاها تتواجد هناك بالقاهرة ) .

تمتم يحيى قائلاً .. (أشكرك كثيراً جداً )

\*\*\*\*\*\*\*

(هيا يا سها .. لقد تأخرنا عن موعد الطبيب)

هتف شاهين بهذه العبارة في ضيق منادياً بها زوجته للمرة العاشرة ... فإذا بها هابطة على السلم وهي تلوح بيدها قائلة في تمرد .. (ماذا دهاك ؟ .. هل أترك زينتي بلا اعتناء حتى نلحق بموعد الطبيب ؟!!)

قال في رجاء .. (لم أقل هذا يا حبيبتي ... وإنما قلقي عليك وعلى جنيننا هو الذي يدفعني إلى الانفعال) .

لوحت بيدها وهي تقول (حسناً .. هيا .. هيا) .

فتح لها باب السيارة حتى استقرت بمقعدها ودار حول السيارة واحتل مقعده وراء المقعد .. وانطلق ..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو يقول .. (هل تعلمين يا حبيبتي ... إنني أجد وأسعى للحفاظ على المملكة التي سيتوج عليها ابننا القادم هذا .. ) .

ارتسمت على وجهها أمارات الضيق وهي تقول .. (ولكن فلتعلم .. هذه هي المرة الأخيرة التي سأحمل فيها .. فأنا أرفض أي شيء يقيد حريتي مهما كان ... وكفاني هذا الجنين) .

ضحك شاهين وقال .. (كما تأمرين يا أميرتي .. المهم أن يأتينا سالماً وبعدها نرتب سوياً ما سيحدث فيما بعد) .

سألته قائلة .. (ما اسم الطبيب الذي نتابع الحمل معه ؟ .. لقد نسيته ) ..

أجابها قائلاً .. (إنه من أكبر أطباء أمراض النساء والتوليد بمصر .. إنه الدكتور علام .. ) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت الطائرة المقلعة من الأقصر إلى القاهرة تخترق السحاب في قوة وكأن هذه السحب خيوط واهية أو صورة هولوجرافية ليس لها كيان مادي ملموس ..

وبداخل الطائرة كانت أسماء ترتكن بظهرها إلى المقعد وبجوارها زوجها يحيى وبعد فترة من الصمت نطقت وقالت .. (لقد أنفقت الكثير يا يحيى) ....

ابتسم يحيى بود وقال ... (ليس لدي من هو أهم منك لأنفق عليه يا عزيزتي .. وها أنت تبصرين .. لا يوجد سبيل غير هذا .. فحالتك الصحية المترددة .. وهذا الحمل الذي نترقبه بلهف .. يحتمان علينا أن نقضي هذا الشهر بالقاهرة حتى يأذن الله بالميلاد وبسبب حملك لا يوجد أمان في السفر سوى بالطائرة .. إنه حمل واحد وأخير ويستحق ما يُنفق عليه) .

هزت أسماء رأسها وقالت بلكنة حزينة .. (نعم .. حمل أخير ..) .

ربت يحيى على يدها وقال .. (لا تقلقي يا حبيبتي .. سنتابع هذا الحمل طوال شهره الأخير مع أعظم أطباء أمراض النساء والتوليد في مصر ... وإن شاء الله سيأتي سالماً وصالحاً .. ) .

قالت أسماء في اهتمام .. (هل معك الورقة المدون بها اسم هذا الطبيب وعنوانه؟) مد يحيى يده في جيبه وأخرجها قارئاً ما بها قائلاً ..

(بالطبع يا عزيزتي ... إنه الدكتور علام ... ) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

انطلقت صرخة ضعيفة متقطعة ثم لم تلبث أن أصبحت قوية مستمرة من فم ذلك المولود الذي أقبل بوجهه ثم بكامل جسده إلى الحياة الدنيا .. فقد أقبل من رحم أمه وجنته إلى تلك الدنيا بما فيها من فتن ومشاق .. كانت صرخته أشبه بصيحة اعتراض لانتزاعه من تلك الواحة التي كان يتنعم بها .. ولكن ... هي سنة الحياة

أعطى د. علام ذلك الوليد لأم حسين واهتم باستخراج المشيمة التي كانت تضمه وما زالت برحم أمه ...

وما إن تمت الولادة وبنجاح تام .. حتى التفت د. علام إلى أم حسين التي كانت تقوم بما يجب نحو الوليد الجديد من شفط للإفرازات التي تملأ فمه وأنفه وتغطيته بملابسه ... وإذا به يرى وجناتها مبللتان بالدموع ....

هنأ الأم بوليدها ... وطلب من أم حسين أن تتبعه .. التي ما إن ولجت مكتبه حتى قال لها .. (ما بالك يا أم حسين تنسال دموعك في كل مرة توليد أقوم بها؟!)

كانت هناك سحابة حزن تغيم على وجهها وما إن ألقى عليها د. علام سؤاله حتى انفجرت باكية .. مما أثار به الشفقة فقام وأخذ يربت على كتفها وهو يقول ..

(آسف يا أم حسين إن كنت قد أثرت بك أحزاناً أو قسوت عليك ..) .

قالت من بين دموعها .. (أنت لم تفعل شيئاً ... إنه أنا التي لا أستطيع نسيان وليدي الذي فقدته قبل أن يكتمل .. ) .

أصيب د. علام بدهشة وقال .. (يا إلهي .. أعند كل مرة توليد تتذكرينه وتبكين لأجله ؟!!! ) ... قالت .. (إنه ولدي يا دكتور علام .. فلذة كبدي .. نبض وجداني .. وحنين كياني .. لو خُيرت بين كنوز الدنيا كلها أو نفس واحد يتردد في صدره .. لاخترت الثانية .. بل إني على أتم الاستعداد لأن أعطيه كل عمري لأجل هذا النفس) ..

وقف د. علام مشدوهاً أمام هذا الحديث .. وارتبك قليلاً وداخله حزن ما وضيق جعله يقول .. (حسناً .. حسناً .. اطمئني يا أم حسين لن أجعلك تتذكرين ذلك بعد الآن سآتي بممرضة أخرى تساعدني في حالات التوليد ..) .

وقبل أن يسمع ردها ... ترك المكتب وخرج ...

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(إن شاء الله .. سيكون يوم الولادة هو الثالث عشر من مارس) ...

نطق د. علام بهذه العبارة لشاهين وزوجته .. التي قالت .. (ولكني لا أريد أن أشعر بآلام الوضع .. فهل هناك مخدر يمنحني ذلك ؟ ) .

ضحك د. علام وقال .. (يوجد بالتأكيد ولكن ذلك ليس في مصلحة الجنين .. ولأننا نريدك في وعيك فاستجابتك للآلام تيسر الكثير وتحافظ على الجنين ..) .

قال شاهين .. (لا تستخدم هذا المخدر قط يا د. علام فأنا لا أريد أن أعرض ولدي لأية مخاطر ..) .

قالت سها في تحد .. (أتبحث عن ولدك وتتجاهلني أنا ؟! ) .

قال شاهين في تردد .. (أنا لم أقصد ذلك يا سها .. ولكني أريد ألا يحدث لك ألم ولا يتعرض ولدنا لمخاطر أيضاً .. فهل هذا ممكن يا د. علام ؟؟ ..) .. وقبل أن ينطق د. علام قالت سها .. (حسناً يا د. علام .. فلتجعل ولادتي بعملية قيصرية)

قال شاهين بفرحة .. (نعم .. هذا أفضل لنا جميعاً ..) .

هز د. علام رأسه في تعجب وقال في بساطة .. (كما تحبون .. ) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(هذه الولادة لابد وأن تتم بعملية قيصرية .. )

نطق د. علام بهذه العبارة ليحيى وزوجته أسماء ... فقال يحيى .. (ولماذا يا دكتور علام ؟) .

عاد د. علام بظهره إلى الوراء وأخذ يشرح قائلاً .. (أنت بنفسك قلت أن هذه هي الفرصة الأخيرة للإنجاب .. وبالتالي هذا الطفل نطلق عليه لقب .. "طفل غالي" ولابد من الحفاظ عليه بشتى الطرق .. ومن هنا نحاول أن نجنبه المصاعب التي قد يلاقيها أثناء الولادة الطبيعية .. وذلك عن طريق أسهل سبيل للتوليد وليست به أية مخاطر لهذا الجنين ألا وهي الولادة القيصرية ..) .

قال يحيى .. (ولكن أليس في ذلك مخاطر تهدد الأم ؟ ) .

قال د. علام ... (ما دامت كل الاحتياطات اللازمة متخذة .. والعملية تتم بأيدي مدربة .. لا توجد مخاطر إن شاء الله) .

فقال يحيى لزوجته .. (ما رأيك يا أسماء ؟ ).

هزت أسماء رأسها قائلة .. (وهل هناك قول بعد هذا يا يحيى !! فلتتم على بركة الله) .

التفت يحيى ناحية د. علام قائلاً له .. (حسناً يا د. علام وتُرى ما هو الموعد المحدد لتلك العملية ؟ ) .

نظر د. علام في الأوراق التي أمامه وقال .. (إنه .. إن شاء الله .. سيكون يوم الأربعاء الموافق الثالث عشر من مارس) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

ارتكن د. علام بظهره إلى كرسيه وشبك أصابعه أمام عينيه ماداً قدميه إلى منتهاهما .. وتنهد في قوة ...

لقد كان اليوم كالعادة مليئاً .. ونال من الإرهاق ما نال .. ولكن هناك شيئاً واحداً ما زال يحفر معالمه على جدار مشاعره .. إنه قول أم حسين الذي تلفظت به أمامه اليوم .. لقد طرقت دون أن تدري أقوى شيء كان يتعمد أن يتجاهله دائماً .. إنه أمر .. عدم زواجه وبالتالي عدم إنجابه ...

فبالرغم من أن ميلاد مئات الأطفال يتم بين يديه ... إلا أنه لم ينعم يوماً بأن يكون أحدهم ولده ...

ترى ما السبب ؟؟ .

انطلقت ذاكرته إلى الوراء .. إلى أيام شبابه ...

كانت ابنة خاله .. عندما أراد الله عز وجل أن يعبر عن الجمال في شيء من مخلوقاته .. جعل ذلك في وجهها ...

عيناها اللتان كان يغوص بداخلهما .. تقاطيع وجهها الساحرة وصوت ضحكتها الرنانة كأجمل مقطوعة موسيقية ...

كل ذلك كان يجعله يسبح معها في عالم لم يعرف بعد ما هو اسمه ... كان علام وقتها أشد الشباب انضباطاً ومثالية .. كان شغله الشاغل دائماً .. هي مذاكرته وتفوقه ... لذا لم يكن عجباً أن يحوز المراكز الأولى في كل شيء .. ولم يكن أبداً ليسعى إلى تلك العلاقات التي تنشأ بين الشباب من الجنسين في تلك السن الخطرة ....

لولا أنها هي التي بدأت تحث الخطى نحوه ... وتنسج حبائلها حوله ...

وأخيراً وقع ....

ولأنه مثالي في كل شيء .. حتى مشاعره .... كان يكن لها أقوى عاطفة وأنقى حب ... وبعد أن أصبح متيماً بها ... إذا بها تلقي به في قسوة ... لقد نالت ما تريد ... فقد كانت ككثيرات غيرها لاهية عابثة ... تريد أن تجمع إعجاب ومشاعر الشباب حولها كما تجمع طوابع البريد التذكارية .. فكلما وقع أحدهم في هواها .. كان ذلك تأكيداً لتميزها وأنها على القمة بما تملك من جمال وسحر ..

وكانت هذه أول حفرة يقع بها .. فقد اعتاد أن كل شيء حوله يسير بمثالية تامة فكل شخص يرى الدنيا بعينيه ...

فالصادق .. لا يمكنه التخيل بأن في الدنيا كذاباً ...

والفاجر ... يتعجب أن يكون هناك من يتصف بالصلاح ...

وكذلك كان هو ....

وهزته هذه الصدمة بقوة وعنف ... ولأنه حاسم وقوي ولا يقبل أنصاف الحلول فقد أخذ يفكر ووجد التالي ...

لقد كان يحلم أن يضمهما بيت واحد وارف الظلال تملأ السعادة أرجاءه برنات ضحكات أطفاله ....

ولكن هاهو كل شيء ينهار ... حتى أنه كاد أن ينتهي ... لذا قرر أن يبتعد تماماً عن هذا الطريق ...

فليتجه للعلم ... ذلك الطريق الذي تميز فيه ولم يذق معه الفشل حتى الآن ...

ولكي يقطع على نفسه طريق العودة قام بفعل يرفضه الدين والعقل ....

وهاهو الآن لا يمكن أن يتزوج أو يبني بيتاً ....

وبهذا لم تعد حياته سوى للعلم ...

وربما كان ذلك من ضمن أسباب تفوقه وتقدمه وتميزه الذي اشتهر به ...

لقد قامت أم حسين بإثارة ما قام بدفنه حتى لا يتأذى ....

ولكن ترى ما هي قوة العلاقة بين الآباء وأبنائهم ؟؟ ...

إنه حقاً لم يتزوج ... وبالطبع لم ينجب .... لذا لم يجرب تلك العاطفة ولكنه يتعجب أشد العجب لما يراه في كل يوم من شدة تلك العاطفة ...

الآباء يضحون بأنفسهم لأجل أبنائهم حتى ولو كانوا عاقين ...

الأمهات يرضين أن يبتر عنقهن على ألا يشاك أبناؤهن بشوكة ...

فما سر تلك العاطفة ؟؟ ...

هل هي شيء وجداني ؟ ... أم أنها أمر مكتسب ؟...

بمعنى ... هل ذلك ينشأ لأن الابن حقاً منهما ويحمل معه كل مشاعرهم وجزء من وجدانهم ؟ ...

أم لأنهم قاموا بربيته وتنشئته بين أيديهم ؟

وفجأة ... نسي د. علام ما أثير بداخله من مشاعر وقفزت على الساحة حاسته العلمية ...

وردد قائلاً ... (يالها من فكرة لبحث جديد ...) ... وأخذ يفكر ويفكر كيف يقوم بذلك البحث ....

وأخيراً وبعقله العبقري اهتدى إلى السبيل الذي يحقق من خلاله ما يريد ....

وقرر الآتي .....

في يوم الثالث عشر من مارس سيبدأ أولى الخطوات في هذا البحث ....

ففي هذا اليوم سيتم الميلاد لطفلين يتبعان عائلتين مختلفتين ... فبدون أن يشعر أحد سيقوم بإبدال كل طفل مكان الآخر وبعدها سيحرص على الآتي .....

سيوطد علاقته بكلتا العائلتين وسيرقب عن قرب ما يحدث بينهم وبين هذين الطفلين ... وسيرى هل حقاً بوجدانهما سيدركان أن هذين ليسا ابنيهما ... أم لأنهما يقومان بالتربية على شيء محسوس لن يشعرا ؟؟ ...

ولكن .... إذا بصوت ضميره ينطلق ...

(وهل ترضى بذلك يا علام ؟ ... وهل هذا يناسب شرف المهنة والعلم الذي تحمله بين جنبيك ؟؟)

وإذا به يجيب ...

(العلم لابد أن تكون له تضحيات .. وعلى كل ... إن لم يشعرا بشيء وسارت الأمور على ما يرام ... سيترك الحياة تسير بهما كما أرادت .. وبعد أن يصل لإجابة سؤاله سيتدخل ويعلم الطرفين بكل شيء ... وبهذا يتم البحث بدون ضرر) انتهى إلى تلك النتيجة ... تنهد بارتياح وقال ... (هيا يا علام ... ها قد جاءك البحث بين يديك) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت الساعة تتجاوز الواحدة بعد منتصف الليل ....

كان القلق والوجوم يلف تلك المنطقة التي يقع فيها المبنى الخاص بوزارة الصحة بشارع مجلس الشعب ....

فقد كان المبنى يمتلئ بجنود الشرطة ... وسياراتهم التي تقف أمامه ..

وهناك .. وعبر أحد هواتف المبنى .. كان أكبر الضباط يتحدث قائلاً ... (الأمر مثير للريبة يا سيدي فحتى الآن لم نجد أي أثر يدل على أن هدف الاقتحام كان لسرقة أي شيء مادي .. فكل الخازنات سليمة ... ولا يوجد أي أثر للعنف ..) ..

واتنظر قليلاً ليستمع لمحدثه على الطرف الآخر ... وتحدث قائلاً ..

(اطمئن يا سيدي سنتخذ كل اللازم ...)

وما إن أغلق الهاتف .. حتى تحدث إلى زميله قائلاً ...

(ألم يتم اكتشاف شيء بعد ؟؟) ...

هز زميله رأسه نافياً وهو يقول .. (مطلقاً .. كل شيء سليم وفي موضعه ..) .. قال الضابط الأول .. (عجباً .. أفي منطقة حساسة كتلك التي يقع بها مبنى مجلس الشعب يحدث أمر كهذا ؟!! والأمر المثير للدهشة .. أنه بالرغم من سماع جنود الحراسة لضجة عالية .. إلا أننا لا نجد أثراً لتلك الضجة !!) .

قال زميله في غير عناية .. (أنا من رأيي أن مبنى وزارة الصحة لا يوجد به شيء ذو قيمة حتى يثير كل ذلك) ...

قال الضابط .. (ولكن ذلك الغموض يثير شكوكاً مريبة ... فربما المقصود يبتعد تماماً عن هذا المبنى ..) .

هز زميله رأسه في لا مبالاة قائلاً .. (ربما ...) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

ألقى د. علام تلك الجريدة التي كانت تحمل تفاصيل ذلك الحادث الذي وقع بوزارة الصحة .. وتنهد قائلاً ... (كثيرة هي الحادثات الغامضة التي تحدث هذه الأيام) .. قطع عليه خلوته دخول أم حسين قائلة ...

(طبيب التخدير وصل .. والحجرة معدة لإجراء العملية يا د. علام) .

قام د. علام قائلاً .. (حسناً .. الآن يتم كل شيء حسبما أريد .. وأنت يا أم حسين أطلب مساعدتك في هاتين الولادتين .. وبعدها اطمئني .. لن أعرضك لأية متاعب نفسية) .

قالت أم حسين في خفوت .. (كما تشاء يا د. علام ..) .

وقام د. علام ليرتدي الزي المعقم ليقوم بالولادتين في آن واحد وبداخل حجرة العمليات كان كل شيء معداً .. وقد تم تخدير سها أولاً وأصبحت في حالة استعداد للتوليد ...

وبيد ماهرة بارعة وبسرعة أصبحت بالنسبة للدكتور علام روتينية .. كان قد تم ميلاد الولد الذي ينتظره شاهين على أحر من الجمر .. أعطى الوليد لأم حسين ككل مرة لتقوم بما يجب نحوه .. وبعدها بقليل كان قد أغلق الجرح وقام بتخييطه في حين كانت أسماء قد تم تخديرها أيضاً .. فاتجه إليها وقام بتوليد ولدها الذي يعد نهاية أملها في أن يزداد عدد بنيها ...

وبينما كان طبيب التخدير منهمك في إفاقة كل من سها وأسماء .. اتجه د. علام إلى أم حسين قائلاً .. (أيهما يخص الأولى ؟) أشارت إلى ذلك الذي كان مغطى بالثياب ويصرخ باستمرار .. فأخذ الثاني وقال لها .. (حسناً هيا اخرجي أنت .. وأخبري أبويهما بالبشرى .. ) ...

نظرت إليه أم حسين بدهشة ... ولكنها لم تستطع أن تتفوه بكلمة اعتراض .. فهي اعتادت دائماً أنه لا يلقي بالاً للطفل بعد ميلاده .. فما باله يهتم بهذين الطفلين !!) ولكنها تركتهما وخرجت صاغرة ويحتويها سؤال تبغي له جواباً .. وما إن خرجت حتى أسرع د. علام ليبدل ملابس كل طفل للآخر .. ويضع كل واحد منهما في موضع الآخر ...

وخرج من حجرة العمليات وقد تم له ما أراد ...

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(لك كل ما تطلب يا د. علام )

نطق شاهين بهذه العبارة في فرحة تكاد أن تكتسحه .. في حين ابتسم د. علام بوقار وقال .. (إنني لا أطلب شيئاً يا سيد شاهين .. كل ما هنالك أني دائماً أحتفل بكل ولادة مئوية وأجعل لصاحب تلك الولادة مكانة خاصة وأحب دائماً أن أوطد الصلة معه ومع ذلك الوليد .. وولدك كان على رأس إحدى المئات .. وبالتالي فقد حاز تلك المكانة) ..

أخرج شاهين بطاقة تحمل جميع بياناته وأعطاها للدكتور علام قائلاً له .. (هاك بياناتي وأنا في أي وقت طوع أمرك .. وأعلمك أنه شرف لي أن أكون أنا وولدي لنا مكانة خاصة لديك) .

تنحنح د. علام وهو يقول .. (لي مطلب عزيز .. ألا وهو أني أريد متابعة النمو النفسي لذلك الولد .. فأنا أعد دراسة عن النمو النفسي للأطفال الذين تم ميلادهم عن طريق العمليات القيصرية .. وولدك بالطبع أحدهم ..) .

قال شاهين في بساطة .. (لك ما تطلب .. ولكن كيف أساعدك في ذلك ؟) ...

قال د. علام .. (أريدك فقط عندما .. أستفسر منك عن شيء يخصه أن تجيبني بصدق ..) .

قال شاهين ... (إن هذا أيسر شيء .. وأنا طوع أمرك يا د. علام ..) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(لقد ظننت أنك من قاطني القاهرة ..)

نطق د. علام بهذه العبارة أثناء حديثه مع يحيى .. الذي رد عليه قائلاً .. (إننا فقط نقيم هنا حتى يتم ميلاد طفلنا بسلام وبعدها نعود إلى مدينتنا الأقصر ..) .

شرد د. علام ببصره وقال .. (حسناً .. حسناً .. ولكن أريد منك العنوان بالتفصيل وكذلك رقم هاتفك إن وجد .. فأنا أقوم بدراسات عديدة .. وبما أن ولدك قد تم ميلاده بين يدي ربما أحتاج إلى بعض البيانات التي تخصه بين الحين والآخر .. ) .

أعطاه يحيى عنوانه بالتفصيل ورقم الهاتف .. وأخذ كذلك من د. علام عنوانه ورقم هاتفه حتى يستطيع التوصل إليه إن حدثت مضاعفات فيما بعد ...

وما إن خرج يحيى .. حتى تنهد د. علام بقوة وقال .. (أخيراً ..) .. ها قد تمت الخطوة الأولى بنجاح تام ..

فقد استطاع إبدال الطفلين بدون أن ينتبه مخلوق لهذا ... فقد قرر أن يقوم بالولادتين في آن واحد لكي يتمكن من ذلك بسهولة .. فبالرغم من أن إجراء عمليتين في آن واحد خطأ طبي وقد أثار ذلك طبيب التخدير .. إلا أن العائد السخي الذي يعود عليه بتعاقده مع د. علام جعله لا يبدي تساؤلاً لذلك .. و د. علام كان يثق ثقة تامة في قدراته مما جعله لا يشك لحظة في أن كل شيء سوف يتم على ما يرام ... وها هو الآن وقد وطد العلاقة بينه وبين العائلتين بما يتيح له أن يتم بحثه بنجاح ... فبالرغم من أن إحداها تعد في أقصى الأرض بالنسبة إليه إلا أنه يكفيه أن الأخرى قريبة ومتابعتها يسيرة .. وعموماً .. سوف يجعل الأخرى للمقارنة ... وسوف يقوم بزيارتهم أثناء جولته السياحية التي يقوم بها كل عام لتلك المنطقة ...

وأهلاً بنجاح جديد ...

وبدأ في كتابة خطوات هذا البحث .....

\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(لقد اشتقت إلى أماني ابنتنا بقوة لا مثيل لها)

نطقت أسماء بهذه العبارة لزوجها يحيى وهي حاملة وليدها الجديد بين يديها وترضعه من ذلك الغذاء الرباني الذي جعله الله آية من آياته .. والذي حتى الآن لم يصل البشر إلى مدى فوائده العظيمة ...

فرد عليها يحيى قائلاً .. (اطمئني يا زوجتي الحبيبة .. أسبوع واحد ونعود إليها .. وعلى كل حال بالتأكيد هي في خير ما دامت مع عمتها "رفيدة" فكل منهما تحب الأخرى في قوة .. )

ابتسمت أسماء وهي تقول .. (ترى .... ماذا سيكون شعورها عندما ترى أخاها "أنس" ؟ )

رد يحيى قائلاً .. (في البداية ستتعلق به لأنه شيء جديد بالنسبة لها .. ولكن بعد قليل ستبدأ في معاداته لأنه سيسلب منها كل المزايا التي كانت تحوزها .. وسوف يشعل الغيرة عندها لأقصى الدرجات.. ) .

قالت أسماء برجاء ... (إنني أدعو الله عز وجل أن يبارك لنا في هذين الطفلين ويحفظهما لنا .. )

عقب يحيى قائلاً ... (إن شاء الله ... فما دمنا نراعي تعاليمه .. حتماً سيكرمنا)

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان شاهين يتأمل بنشوة منظر زوجته سها وهي ترضع وليدها وتربت على رأسه بحنان ....

فهو يعلم مدى شراستها وعنادها وتمردها ... ولكن .. ها هي الفطرة التي وضعها الله عز وجل في كل امرأة تتغلب عليها .. فها هو لأول مرة يتطلع إليها ويشعر أنها وديعة ...

إنه يشعر أن حياته حتماً ستتغير بعد مجيء هذا الوليد ...

(متى سيكون الحفل الذي تعده لولدنا "سامر" يا شاهين ؟) .. نطقت سها بهذه العبارة في اهتمام شديد .. فقال شاهين على الفور ...

(سيكون بعد الغد الأربعاء .. أي في يوم سبوعه .. فأنا سوف أجعله يوماً أسطورياً ... سأدعو إليه كل الشخصيات الشهيرة وسوف يكون بأفخر فنادق القاهرة ... وسيتم تصويره بالفيديو .. ولن أبخل عليه بقليل أو كثير من المال ...

ولك عندي مفاجأة في هذا اليوم) .

قالت سها في فرحة .. (ما هي؟ ...) ..

ضحك وقال ... (ستعلمينها في وقتها ...)

ضربت سها الوسادة في قوة اهتز لها الطفل وقالت في عناد .. (لا .. بل ستخبرني الآن .. وإلا لن تراني في هذا الحفل أنا وولدي ..) .

ابتسم شاهين وقال .. (إنه أنت سها ... لا يوجد ما يغير من طبعك ... حسناً .. لقد وضعت مبلغاً ضخماً باسمك في البنك .. وكذلك مثله لابننا سامر ...) .

قالت سها في فرحة شديدة ...

(حقاً ... أشكرك كثيراً جداً يا شاهين ... )

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان د. علام يلملم أوراقه بعد أن حدد ووضع النقاط التي سوف يسير عليها بحثه الجديد .. فقد وضع الأسئلة التي سوف يسعى ليحصل على الإجابة عنها وتكون محصلة الإجابات هي نتيجة البحث وهي نفسها إجابة للسؤال الكبير الذي وضعه في البداية ...

وضع الأوراق داخل غلافها الخاص بها .. ووضع الجميع داخل درج مكتبه وأغلقه بعناية .. ونظر إلى ساعته فوجدها قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل .. فتثاءب بقوة .. وأغلق الضوء الذي ينير مكتبه .. وصعد إلى حيث حجرة نومه لينال قسطاً من الراحة .....

وما إن أغلق ضوء حجرة نومه ... حتى أخذ يسبح في أفكاره ولم يدر ما السبب الذي جعله يتذكر بحثه الماضي ...

فقد كان يدور حول أحد أمراض النساء الشهيرة ...

فقد توصل إلى حل يهبط بمشكلة هذا المرض من 90% إلى 5% فقط وقد كان إنجازاً شهد كل من علمه للدكتور علام بالعبقرية ..

وبينما كان مستغرقاً في أفكاره والنوم يحث الخطا إلى جفنيه إذا بضجة عالية تجعله يقوم منتفضاً ...

كانت الضجة آتية من أسفل .... تردد قليلاً .... ولكنه قام وهبط مسرعاً ليرى ما الحدث .....

فإذا به يجد باب غرفة مكتبه مفتوحاً وضوؤها مضاء ... ولم يكن هناك أثر لمخلوق ...

دخل إلى الحجرة فإذا بالمنضدة الصغيرة مقلوبة ... أخذ يتطلع إلى محتويات الغرفة فلم يجدها تنقص شيئاً ...

فتعجب وقال ... (حتماً هو لص .. ولكن لن يجد بغيته هنا .. فأنا أحتفظ بكل أموالي في أحد البنوك .... )

أخذ د. علام يراجع أقفال أبوابه ولعجبه ... وجدها كلها سليمة فأخذ يتساءل .. (ترى من أي منفذ دخل ذلك اللص ؟!! ) ... هز رأسه بتعجب دون أن يجد إجابة

وأخيراً أغلق الضوء وصعد وهو يقول ..

(يبدو أنك تحتاج إلى حارس يا علام ... فالمنزل يقع في منطقة نائية .. ومن السهل أن يتعرض لسرقة الأشياء الثمينة به .. وها هم اللصوص قد عرفوا الطريق إليه .. ) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت سها مرتمية بضعف على أحد المقاعد وهي تحمل طفلها وتداعبه بأطراف أصابعها ...

وكانت الأضواء الزاهية تملأ المكان .. وصوت الموسيقى يتردد في كل الأرجاء

توجه إليها د. علام وجذب مقعداً وجلس بجوارها وبدأ معها الحديث قائلاً ...

(كيف حالك الآن يا مدام سها ؟) .

نظرت إليه قائلة ... (في خير حال .. ولكن موضع العملية يؤلمني أحياناً .. )

قال .. (بالطبع إنه أشبه بجرح غير عادي وبالتالي يحتاج إلى مدة غير وجيزة حتى يلتئم ... المهم ما هو حال ذلك الوليد الآن ؟ )

ضحكت قائلة .. (إنه بخير .. ولكنه يبكي كثيراً ويزعجني .. )

قال مازحاً .. (أعتقد أنك كنت كذلك وأنت صغيرة ... ولكن ما هو حال العلاقة بينك وبينه ؟ ) .

نظرت إليه بتساؤل قائلة .. (لست أفهم سؤالك !!)

قال شارحاً .. (أقصد ما هي العاطفة التي تشعرين بها نحوه ؟)

قالت في بساطة ... (بالطبع أحبه ...)

تساءل قائلاً .... (هل تشعرين أنه حب عادي .. أم أنه له مذاقاً خاصاً) ..

قالت في تعجب .. (مذاق خاص كيف؟! .. إنه ولدي وبالطبع أرتبط به بقوة .. مثلي كأي أم تحب ولدها .. أم أنك لا تراني أهلا لذلك ؟!!) ...

هز رأسه نافياً وهو يقول ... (لست أقصد ذلك مطلقاً .. ولكن لي تساؤل .. لو أبدلت هذا الولد بآخر دون أن تدرين هل ستعرفين ذلك ؟) ..

كانت سها تتعجب أشد العجب لتلك التساؤلات التي بدت لها غاية في الغرابة .. ولكنها قالت ..

(بالطبع .. كيف لا أعرف ولدي؟! )

قال د. علام (هل ستعرفينه عن طريق ملامحه .. أم بشعورك وعاطفتك ناحيته؟)

قالت سها ... (حقيقة لست أدري ... ولكن تساؤلاتك هذه عجيبة للغاية يا د. علام فما هو سببها ؟ .. هل تعد دراسة ما ؟ )

فوجئ د. علام بتساؤلها هذا فارتبك في قوة وأراد أن يختم الحديث كي لا يُكتشف الأمر فقام واقفاً وقال ...

(مطلقاً .. ولكنها تساؤلات نشأت بداخلي لا أدري لها سبباً .. ولا تشغلي بالك بهذا .. فأنا دائماً تكون تساؤلاتي بمثل هذه الغرابة .. ) .. وتركها وانطلق ..

وهي تنظر إليه بدهشة .. ثم هزت رأسها في غير عناية وعادت تلاعب ولدها سامر ....

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(أسلوبك هذا لا يصلح مطلقاً يا علام .. )

نطق د. علام بعبارته هذه محدثاً بها نفسه وهو يقود سيارته عائداً من ذلك الحفل الذي يقيمه شاهين لأجل ولده ...

كانت الساعة تتجاوز منتصف الليل بكثير والطريق شبه هادئ وقليلاً ما كانت تمر سيارة بجواره ....

وأخذ يفكر في مدلول عبارته التي نطقها ... فمنذ أن تحدث مع سها والقلق يملؤه أن تكون شعرت بشيء ... فهو قد اعتاد في جميع أبحاثه على أن يلقي أسئلة مباشرة وينال إجابات محددة ...

أما هذا البحث ... بالطبع غير عادي ويمتاز بالسرية التامة والأسئلة المباشرة لا تصلح لأنها قد تفضح الأمر كله .. لذا .. اتخذ قراره بأن يعكف على أوراقه ليصوغ الأسئلة التي يجب أن يلقيها بحيث يكون ظاهرها لا يدل على باطنها وتكون هذه الأسئلة غير ملفتة للانتباه أو مثيرة للتعجب وتأتي له بما يريد من إجابات .. وارتاح إلى هذا القرار ... قطع عليه تفكيره قرب وصوله من المنزل .

وإذا به وهو يقترب بسيارته منه يلمح ضوء حجرة مكتبه مشتعلاً ... عقد حاجبيه في قوة وتساؤل واندهاش وقال ... (ما هذا ؟!! .. إنني لم أترك أي أضواء مشتعلة .. هل هو لص آخر ؟! .. أم أنه نفس اللص وأتى ليأخذ ما لم يستطع نيله أمس ؟؟ ... ترى أي شيء يبحث عنه هذا اللص ؟! ) .

أغلق د. علام أضواء سيارته وأوقفها في مكان مبتعد حتى لا يلفت صوت موتورها انتباه ذلك اللص ... وأخذ يجد السير إلى المنزل ... وعندما وصله .. تعمد أن يدخل من الباب الخلفي وبهدوء شديد .. وتحسس خطاه إلى حجرة مكتبه التي كانت مفتحة الأبواب ... وعندما نظر إلى داخلها عمته الدهشة من رأسه إلى أخمص قدميه .... فقد كان هناك رجلان منهمكان في تقليب أوراق أبحاثه التي تضمها مكتبته الضخمة ...

فصاح في دهشة (ما هذا ؟!!) ...

التفت إليه الاثنان في فزع وبسرعة أخرج أحدهما مسدسه وصوبه نحوه في حين قال الثاني ... (د. علام !!! ... ما الذي أتى بك الآن ؟!)

كانت الدهشة تحيط بالدكتور علام وهو يقول .. (بل من أنتما ؟!)

قال الأول وكأنما يريد أن يتخفف من حمل ما .. (نريد الأوراق التي .. تضم بحثك الأخير .. فهل ستساعدنا ؟ .. أم نأخذها بعد أن يطلق عليك لقب "المرحوم"؟ ..)

كانت الدهشة لم تفارق د. علام بعد وهو يقول .. (ولكن لماذا تريدانه ؟!)

رد عليه الرجل قائلاً .. (ليس هذا من شأنك .. هيا أخبرنا أين هو)

تقدم د. علام ببساطة وأخرجه من بين مراجعه التي تكتز بها مكتبته وقال .. (هاهو ...)

اختطفه الرجل منه بفرحة وقال .. (أخيراً .. لقد تمت المهمة بنجاح .. )

قال د. علام بتعجب .. (أي مهمة ؟!! .. ولعلمكم إن كنتم تظنون أنكم تسلبونني إياه .. فهناك ثلاث نسخ منه بقسم الأبحاث بوزارة الصحة ..)

ضحك الرجل قائلاً .. (لا تشغل بالك بالنسخ الموجودة هناك .. لقد أتت إلينا ..)

عقد د. علام حاجبيه في قوة وقال .. (يا إلهي .. أذلك الحادث الغامض كان لأجل هذا البحث ؟!!)

قال الرجل (يا لك من عبقري .. بالطبع كان لأجله والآن نحن لدينا جميع الأوراق التي تضم هذا البحث وبهذا يكون قد انتهى)

قال د. علام بصرامة .. (مخطئون .. لقد نسيتم مصدر البحث نفسه .. إنه أنا .. بالطبع سأستغرق وقتاً لأخطه ولكنه حتماً سيعود ...)

نظر كل من الرجلين إلى الآخر بقلق ودهشة وكأنهما قد فوجئا بما لم يتوقعا .. ثم نظر إلى د. علام .. وقال حامل المسدس .. (أنت لم تترك لنا الخيار)

كانت الدهشة قد تملكت جميع أركان د. علام وحازت كل كيانه وهو يقول .. (أي شيء وأي خيار !!! .. وما الذي تريدونه من وراء هذا البحث ؟!!)

قال أحدهما .. (عذراً يا د. علام التخلص منك أصبح أمراً حتمياً .. وما دامت نهايتك آتية .. لا ضير من أن تعرف التفاصيل .. خلاصة الأمر أن بحثك الأخير يهدد إحدى شركات الأدوية بالخسارة الفادحة .. فهذا المرض الذي توصلت إلى حل له .. كانت شركة الأدوية هذه تحتكر صناعة الدواء الوحيد الذي كان يستعمل لتخفيف آثار هذا المرض ... وكانت الشركة تربح من ورائه المليارات في كل عام ...

ولكن بحثك الأخير أتى لينهي هذا المرض .. وبالتالي يذهب بهذه الأرباح .. لذا وجب التخلص من هذا البحث)

كانت عينا د. علام تكاد أن تهجرا محجريهما غير مصدق لما يسمع وأخيراً نطق قائلاً .. (يا إلهي !! .. هل أصبحت الضمائر خربة إلى هذه الدرجة ؟! أمن أجل بضعة جنيهات ترفضون رقي البشرية وترضون بآلام آلاف من النساء؟! .. هؤلاء النسوة من الممكن أن يكن أماً أو أختاً أو ابنة لأحدكم .. ألم تفكروا في هذا؟!!) .

هز الرجل رأسه قائلاً .. (لسنا هنا لنسمع محاضرة في علم الأخلاق .. هيا يا دكتور علام .. قل للدنيا وداعاً ..)

وبعدها بقليل .. كانا يبتعدان تاركين خلفهم جثة د. علام مضرجة في دمائها وقاما بسرقة بعض الأشياء الثمينة كي يجذبون أنظار الباحثين عن آثار الجريمة إلى أسباب أخرى غير الحقيقية ...

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(رحم الله الدكتور علام ... لقد كان عالماً بمعنى الكلمة ... )

نطق شاهين بهذه العبارة أثناء حديثه مع زوجته سها التي قالت (المهم أن ولادة سامر ولدنا قد تمت قبل وفاته ... ) ..

قال شاهين .. (هل تعلمين ؟! .. لقد كان ينوي أن يوطد الصلة معنا فقد أخبرني أنه يعد بحثاً ما وأن ولدنا سامر له دور كبير في هذا البحث)

قالت سها في تفهم .. (الآن عرفت لماذا كان يسألني تلك الأسئلة العجيبة يوم الحفل ..)

قال شاهين في تساؤل ... (أية أسئلة هذه ؟!)

قالت سها في ضجر .. (لقد كان يسألني عن العاطفة التي بيني وبين سامر ولدي وهل إذا تم إبداله هل سأتعرفه أم لا ؟ .... وكان ذلك بطريقة مثيرة للدهشة .. ولكن عندما سألته هل يقوم بإعداد بحث ما نفى ذلك في ارتباك شديد .. فما سر ذلك ؟! )

قال شاهين مجيباً على تساؤلها .. (أمثال هؤلاء العلماء تكون لهم طريقة عجيبة في كل تصرفاتهم وأسلوب معيشتهم .. المهم ... ما هو حالك وحال ولدنا وأمل المستقبل سامر ؟)

\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت أسماء تضم ولدها أنس إلى صدرها ويحيى يجلس في مقابلتها ويؤرجح ابنته أماني على قدميه وهو يقرأ تلك الصحيفة التي تصدر يومياً ...

ألقى الصحيفة جانباً وقال ... (سبحان الله .. {وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت} ... صدق الله العظيم )

نظرت أسماء نحوه قائلة ... (ماذا هناك يا يحيى ؟؟)

قال يحيى في تأثر شديد ... (د. علام الذي قام بتوليد أنس ولدنا .. قتل أمس في محاولة لسرقة منزله)

شهقت أسماء وقالت .. (يا إلهي !! .. ومن فعل ذلك ؟)

هز يحيى رأسه في تأثر قائلاً .. (حتماً بعض الأشقياء الذين لا يراعون للدين حدوداً .. ولا يعرفون لله حقاً ... إن أكثر ما يؤلمني أن يقتلوا عالماً مثله أفاد البشرية بأبحاث عديدة ... وبالطبع كان يعد المزيد ... والله أعلم ماذا كان يحوي بحثه الأخير .. )

قالت أسماء .. (نسأل الله عز وجل أن يعافينا ويبعد عنا كل ضر .. ويبارك لنا في ولدينا) ...

ردد يحيى وراءها قائلاً ... (اللهم آمين) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

وهناك ....

عند إحدى المقابر بالقاهرة .....

هبت نسمة خفيفة ... فأطارت بعضاً من الوريقات التي تحيط بالزهور الملقاة فوق قبر أحد العلماء ....

إنه عالم نعرفه جيداً ...

ذخرت حياته بالأبحاث الناجحة التي دفع حياته ثمناً لأحدها .....

وكان يعد العدة ليخرج بنتيجة جديدة عبر بحثه الأخير .... ولكن القدر لم يمهله ليتم هذا البحث .... وبدا من الواضح أن المشيئة الإلهية قدرت أن يظل ما فعل مع العائلتين سراً لا يدري به أحدا ....

إنه قبر د. علام ...............

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

الفصل الثاني

الرحلة

(الله أكبر .... ولله الحمد)

دوى هذا الهتاف من فم هؤلاء الطلاب الذين يملئون القاعة التي يجري به انتخاب أمين اتحاد طلاب كلية الطب بجامعة أسيوط .. كلهم نطقوا به في آن واحد دونما اتفاق بينهم فور إعلان تنصيب مرشحهم "أنس يحيى عزام" أميناً لذلك الاتحاد ...

وما أن أعلن المسئول عن تلك الانتخابات عن فوز أنس بهذا المنصب حتى قام أنس وابتسامته الوضاءة تملأ وجهه ...

وتناول الميكروفون ... وبدأ محدثاً زملاءه قائلاً ...

(الحمد لله رب العالمين .. أيها الأخوة الزملاء ... إنني لا أعتبر فوزي بهذا المنصب تشريفاً لي .. بل هو تكليف أُلقي على عاتقي وسوف أسأل عنه أمام الله عز وجل يوم القيامة ... وكل ما أعدكم به أني سأحاول أن أكون عند حسن ظنكم بي ... وسوف أبذل ما بوسعي لأوفي تلك الأمانة حقها ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

وما أن هبط أنس من فوق المنصة حتى التف حوله زملاؤه ... وشق أحدهم الطريق إليه قائلاً ... (د. أنس .. هل لي بحديث معك ؟ ... إنني صحفي بإحدي الصحف المعارضة ... )

كان وجه أنس مضيئاً ببسمته الدائمة وهو يقول (على الرحب والسعة) ...

سأله الصحفي قائلاً ... (بما أنك تمثل التيار الإسلامي بالكلية .. فما هو موقع تلك الانتخابات من دائرة اهتمامتكم ؟؟ )

ابتلع أنس ريقه وقال .. (بداية أحب أن أوجه شكراً خاصاً للقضاء المصري الذي يعد من أشد الجهات نزاهة إلى الآن ونحن في منتصف التسعينات وعلى وشك دخول قرن جديد .. فبعد عدة سنوات من تزوير إرادة الطلاب وتعيين اتحادات لا تمثل بأي حال عن نبض الكلية .. فقد تم الحكم القضائي لنا بإعادة كل من تم شطبهم من قائمة الترشيح ... وها هي لأول مرة منذ عمر تتم انتخابات نزيهة بالكلية .. والحمد لله كانت نسبة النجاح للتيار الإسلامي مذهلة لهؤلاء الذين كانوا يحاولون تزوير إرادتنا .. وإثباتاً أن الناس يعلمون أن التيار الإسلامي هو الممثل الحقيقي لإرادتهم ونبض وجدانهم ...

وإجابة عن سؤالك .. أحب أن أوضح لك أن الانتخابات لا تمثل لنا سوى أنها إحدى وسائل الدعوة إلى الله عز وجل .. وهي ليست هدفاً في حد ذاتها ..

أخذ الصحفي يسأله أسئلة تتعلق بالأنشطة التي ينتوي القيام بها عبر الاتحاد .. وأنس يجيبه مدعماً قوله بين الحين والآخر بآية من كتاب الله أو بحديث للمصطفى صلى الله عليه وسلم .

وبعدها سار أنس تحفه كوكبة من زملائه المؤيدين له ...

وهناك وفي أقصى القاعة .. أشار أحد الطلاب لاثنين من زملائه قائلاً .. (ها هو .. أظنكما عرفتماه) .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت تلك المركبة النيلية تشق طريقها فوق سطح النيل .. وأعلاها كانت تضج الموسيقى الصاخبة بها ...

كانت هناك حلقة من الشباب تتصاعد أبخرة الدخان من أفواههم وأنوفهم .. وتصنع فوقهم سحابة زرقاء عجيبة سريعاً ما تنزوي بسبب الهواء المنساب لانطلاق المركبة التي تقلهم ... وفي وسط تلك الحلقة كان هناك شاب وفتاة يتراقصان على أصداء تلك الموسيقى .. وبين الحين والآخر كانت تلك الفتاة ترتمي على صدره وبين يديه ... بميوعة تامة ...

وبعد مدة من ذلك الرقص المتواصل توقف هذان الراقصان .. فدوى التصفيق الحاد .. وابتسمت تلك الفتاة قائلة لمن كان يراقصها .. (أنت بارع للغاية في الرقص يا سامر ..) .

فضحك قائلاً ... (وأنت مثيرة للغاية يا هايدي .. )

وعلى الفور تشكل فريق آخر للرقص .. في حين اتجه سامر مع هايدي إلى ركن قصي وجلسا ملتصقين ويد كل منهما تحتضن يد الآخر ...

وبدأ سامر الحديث قائلاً ...

- (ما رأيك في هذه الرحلة يا هايدي ؟ )

- (رائعة .. وكذلك كل أنشطة أسرة حورس .. تكون ممتعة إلى أقصى الدرجات) .

- (إذن .. لم أكن مخطئاً عندما دعوتك إليها ...)

- (بل أنا المخطئة إن لم أتبعك في كل ما تشير به عليّ)

- (حسناً .. ما رأيك ؟ هناك رحلة سنقوم بها إلى الأقصر وأسوان في إجازة منتصف العام .. هل ستأتين معي ؟ )

- (هل هي مكلفة ؟ )

- (دعك من التكاليف ... فهي بأجر رمزي .. وإن كانت بكنوز الدنيا كلها سأتحملها وحدي ... المهم أن تأتي معي .. )

ابتسمت وقالت ... (هل تحبني إلى هذه الدرجة ؟؟ ..)

قال سامر بشجن .. (حبي لك لا يُقدر يا هايدي ... )

وضم رأسها إلى صدرها وأخذ يربت على شعرها ...

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان الأستاذ "يحيى عزام" موجه اللغة العربية يقرأ بمصحفه عندما ارتفع صوت طرقات الباب .. فأغلق مصحفه وقام بكل هدوء ليفتح الباب ... فإذا به يجد الطارق هو "عاطف" زميل ولده أنس بالكلية .. فرحب به واصطحبه إلى حجرة استقبال الضيوف ... كان عاطف في غاية التأثر والقلق .. مما جعل يحيى يسأله في قلق (ماذا هناك يا عاطف يا ولدي ؟؟ ) ..

كان عاطف يفرك يديه بعصبية شديدة وأخيراً نطق والدموع محبوسة داخل مقلتيه نطق قائلاً .. (أنس أُلقي القبض عليه يا عمي)

اتسعت عينا يحيى في دهشة وقال .. (قُبض عليه !! ... ولماذا يا عاطف يا ولدي هل اقترف شيئاً ؟! ) ...

زفر عاطف في قوة كأنه يزيح هماً ثقيلاً عن قلبه وقال .. (سأقص عليك الأمر كله يا عمي ..

نحن مجموعة من الطلاب نشكل التيار الإسلامي بالكلية .. ولنا أنشطة نتميز بها عن أي تيار أو اتجاه آخر .. كلها أنشطة تفيد وفي صالح الكلية وطلابها .. ولهذا التف الطلاب حولنا وأحبونا حبا جماً مبعثه إحساسهم بصدقنا في كل أعمالنا وأن غايتها الأولى رضا الله عز وجل ثم العون لكل من يبحث عن معونة ...

وعندما أقيمت انتخابات نزيهة بالكلية .. فزنا نحن بكل مناصب اتحاد الطلاب .. وكان فوزاً ساحقاً اهتزت الكلية لأجله .. ويبدو أنهم لا يريدوننا أن نحاول خوض تلك الانتخابات مرة أخرى ... فبينما كان أنس يسير بصحبة أحد زملائه .. إذا باثنين من الأشقياء ذوي العضلات المفتولة يهجمان عليهما وينهالان ضرباً وبالذات أنس الذي نال ما نال من اللكمات والركلات .. وإذا بعربة للشرطة آتية كان من المفترض أن تقبض على هذين المعتديين .. ولكنها تتركهما يهربان ولا تحاول اللحاق بهما وتلقي القبض على أنس وزميله دونما جريمة اقترفاها .. وعندما ذهبنا إلى القسم لنستعلم عنهما .. لم نجد لهما أثراً .. ومن الواضح أن هذا الحدث كان ملفقاً ليتم اقتيادهما إلى مبنى مباحث أمن الدولة .. ذلك المبنى الذي ترتجف الذبابة عندما تمر بجواره ...

كان يحيى يشعر بغصة في حلقة وألم في قلبه ... كان الحزن يعتريه لأجل ما يدور حوله ... وأخذ يسائل نفسه .. (هل هي جريمة أن تكون شريفاً صادقاً تسعى بحب وإخلاص لخدمة الناس ؟! .. هل هو ذنب أن نتمثل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم {خير الناس أنفعهم للناس} ؟!! ...

أم لأن من يفعلون ذلك يرفعون شعار ...

(الله غايتنا ... والرسول زعيمنا ... والقرآن دستورنا .. ) ؟!!..

وإذا كان خوض تلك الانتخابات جريمة فلم شرعوها ؟!!

وكان يشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه لأجل ولده أنس فهو يعلم الأساليب الوحشية التي يتبعونها عند محاولة أخذ الأقوال من متهميهم ...

قطع عليه تفكيره وتساؤلاته حديث عاطف عندما نطق قائلاً ..

- (لقد جئت أخبرك حتى تعرف سبب تغيبه ...)

- (جزاك الله كل خير يا ولدي ..)

وقام عاطف منطلقاً .. وبعد أن أغلق يحيى الباب خلفه لم يستطع أن يقاوم تلك الدمعة التي سالت من عينه ... فتمتم قائلاً (حسبنا الله ونعم الوكيل ....)

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان شاهين الدمنهوري منهمكاً في تصفح أحد ملفات الشركة وبينما هو منهمك إذا بصوت الهاتف يرتفع ... فرد عليه .. فإذا به أحد رجال الشرطة يقول له .. (نأسف يا سيد شاهين .. ولكن هناك حادث نود أن نعلمك به .. )

قال شاهين في قلق .. (خيراً !! .. ماذا هناك؟! )

قال الرجل .. (نحن نستدعيك بناءاً على طلب ولدك سامر)

قال شاهين في دهشة .. (سامر ولدي !! .. ماذا أصابه ؟! )

- لقد تم القبض عليه ضمن المجموعة المتهمة في قضية عبدة الشيطان)

كان الذهول قد تمكن من شاهين وهو يقول ...

(ماذا !!! ... عبدة الشيطان !!! ... وما علاقة ولدي بهم ؟! )

قال الرجل في صرامة ..

(يمكنك المجيء إلينا وستعلم كل شيء ...)

وما إن علم شاهين بالعنوان حتى قام وتناول معطفه ...

وانطلق ليرى ما الأمر ...

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(هكذا هي صحافتنا التي يطلقون عليها القومية .. لا ترى إلا ما يراه الحاكم ... وتلبس الحق بالباطل ... وتجعل الضحية هي الجاني ..)

نطق يحيى بهذه العبارة وهو يطوي صحيفته ووجهه يحمل أشد آيات التأثر ...

فنطقت ابنته أماني قائلة .. (ماذا هناك يا أبي ؟ ..)

رد عليها قائلاً .. (الصحف تروي الحادث الذي وقع لأنس أخيك على أنه صراع دار بالجامعة ويصفون ما حدث قائلين .....

(بينما توجه طلاب أسرة حورس الوطنيين إلى تهنئة طلاب التطرف .. إذا بهم يعلنون عن الحقد والغل الذي يملأ صدورهم ويعتدون عليهم بالجنازير ويشبعونهم ضرباً وإصابات ) ....

والعجيب أنهم أتوا بصور الطلاب مصابين فعلاً .. ويعلقون قائلين ..

(إن هذا هو أسلوب من يسمون أنفسهم بالإسلاميين دوماً لا ينالون ما يريدون إلا بالعنف الذي هو منهجهم .. وكانت تلك طريقتهم في انتزاع مناصب اتحاد الطلاب .. فقد هددوا طلاب حورس بالقتل فأجبروهم على التنازل) ... حسبنا الله ونعم الوكيل) ..

علقت أماني قائلة ... (ليس هذا بجديد يا أبي ... وعندما ننظر إلى ما يكتبونه إذا تورط مسئول حكومي كبير في فضيحة ما ... إذا بهم صم بكم .. وإذا كتبوا لا يأتون إلا بأشياء توحي ببراءة ونزاهة هذا المسئول) .

كانت الدموع تملأ عيني أسماء وهي تقول .. (ولكن أنس ولدي ... ترى كيف حاله الآن ؟؟ )

ربت يحيى بحنان على كتفها وقال ...

(كان الله في عونه ... واطمئني يا أسماء فلا ذنب له إلا أنه يسعى لرضاء الله .. ويا له من ذنب جميل .. ومهما تذوق من آلام فلن تساوي شيئاً لما كان يحدث لعمار بن ياسر وزوجته سمية وما تذوقه المسلمين الأوائل في سبيل توصيل دعوة الله عز وجل لنا .. وكل هذا في ميزان حسناته إن شاء الله ...

وها أنا قد وكلت محامياً كبيراً يعرف ما سيفعله وإن شاء الله لن يمر أسبوع إلا وهو بيننا ننعم بابتسامته الوضاءة ) ..

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(هذا الولد لا يعرف ما يفعله .... إنه يهدد سمعتي وسمعة شركتي وجميع أعمالي.. ) .

نطق شاهين بهذه العبارة في عصبية شديدة وهو يجول ذهاباً وإياباً ويدق بقدميه بعنف دلالة ما يعانيه من انفعالات فردت عليه سها قائلة وهي تضرب كفاً بكف

(إنني لا أتمكن من النظر في عين مخلوق بالنادي مما فعله بنا .. )

- (إنني أنتظر حتى يخرج وسوف أجعله يعرف قيمة ما فعل .. )

قالت سها باهتمام ..

(كيف يخرج وهم يعلنون أنها قضية كبيرة وقد يحكم عليهم بعدة سنوات ؟؟)

مط شاهين شفتيه وهو يقول ... (أحد لواءات مباحث أمن الدولة صديقي .. وأخبرني أنها فرقعة إعلامية متعمدة ... هدفها الإعلام بأن مباحث أمن الدولة تطارد كذلك من ينحرف عن الدين وليس المتدينين فقط .. وسوف يغلقوا الملف قريباً عندما يجعلون هؤلاء الشباب يوقعون على إقرار يوحي بتراجعهم عن معتقداتهم .. )

- (ولكن ترى كيف يعامل ابننا هناك ؟ )

- (اطمئني فهم في خير حال ويعاملون أرقى معاملة .... ولكن هل أتى الخادم باللوحات القرآنية والمصحف والحامل الذي أرسلته لشرائهم ؟ )

- (لقد أتى بهم منذ الصباح .. ولكن لماذا تريدهم ؟! .. )

- (أحد برامج التليفزيون سيأتي ليصور معنا لقاءًا بسبب هذه القضية .. وأوصوني بأن أعد ديكوراً يوحي بأننا نعرف الإسلام جيداً .. )

قالت سها في فرحة .. (ماذا ؟! ... التليفزيون سيأتي ليصور معنا .. ولماذا لم تخبرني حتى أشتري فستاناً جديداً أظهر به وأعد زينتي جيداً ؟ )

قال شاهين في ضيق .. (تزيني كما تشائين .. ولكن احرصي على ارتداء الحجاب ) ...

قالت سها في دهشة ... (ماذا !!! ... ولكنه يفسد زينتي .. )

قال شاهين بعنف .. (افعلي ما تشائين ... المهم أن نحاول إصلاح أي صورة سيئة تكون قد أُخذت عنا ... )

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان يحيى يضم رأس ولده أنس إلى صدره ويربت عليها بحنان وهو يقول له ..

(اصبر واحتسب يا ولدي ... )

كان أنس يلفه الانفعال وهو يقول ..

(أشد ما يثيرني يا أبي هو الظلم الذي نتعرض له ....

أبسط شيء لماذا لا يجرون معنا أحاديث تليفزيونية ويتركوننا نشرح وجهة نظرنا وما هي أفكارنا كما فعلوا مع من يسمونهم عبدة الشيطان ؟؟ ... )

- (هذا يا ولدي لأنهم يعلمون أنكم على حق وأن فكركم مستنير .. وإذا فعلوا سيتضح هذا لكل ذي بصر ... )

- (أليس من السهل علينا يا أبي أن نغلق على أنفسنا أبوابنا وننعم بالراحة ونترك الحابل يختلط بالنابل ؟؟ )

- (لا يا ولدي ... إن من يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً ... أما الكبير .. فهو الذي يحمل العبء الكبير .. فما له والنوم!! ... وما له والعيش الرغد المستريح !! .... ولقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الأمر فقال .. {انقضى عهد النوم يا خديجة} .. لذلك وجب علينا يا ولدي الحبيب أن نسعى لنشرح للناس الإسلام بوجهه السمح الصريح .. وذلك بالمنهج الذي رسمه لنا القرآن الكريم .. {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة} وكذلك باتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم واستلهام سيرته العطرة )

- (ما أجمل أن يستشعر المرء بمعية الله سبحانه وتعالى ... أقسم يا أبي أني لم أشعر بآلام بالرغم مما كانوا يفعلونه معنا .. وذلك لأني كنت أعلم أن ذلك في سبيله سبحانه )

- (بارك الله فيك يا ولدي وجعلك من أهل طاعته)

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(ما هذا الذي فعلته أيها المستهتر؟؟)

نطق شاهين بهذه العبارة وهو يتحدث مع ولده سامر .. نطقها بعصبية شديدة وانفعال يلف كيانه ...

رد عليه سامر بضيق ... (هل فعلت شيئاً يمسّك يا أبي ؟ .. أليس كل شغلك ألا أفعل ما يضرك ؟ ...)

- (ومن الذي قال أنك لم تضرني بهذا الذي فعلته ؟ ..)

- (وكيف تم هذا ؟!)

قال شاهين وانفعاله قد بلغ ذروته ... (ألم تعلم أن هناك أعداءًا يتربصون بي ويتحينون الفرص لضربي وقتلي .. وأنت أعطيتهم هذه الفرصة على طبق من ذهب بفعلتك هذه .. فقد انطلقوا يشوهون سمعتي ويلصقون باسمي كل دنيء ويدعمون أقوالهم بما فعلته أنت قائلين "هذا الشبل من ذاك الأسد") ...

لوح سامر بيده في غير اعتناء وقال ... (لم أكن أعلم هذا .. وأيضاً لم أكن أتخيل أن يتم القبض علينا بسبب ما كنا نعمل فما أعلمه أن السلطات تطارد الإرهابيين فقط .. )

قال شاهين في فضول ....

(ولكن ما هي عبادة الشياطين هذه التي كنتم تقومون بها ؟؟؟ )

قال سامر ببساطة ... (مجرد شيء جديد كنا نحاول استكشافه) .

ردد شاهين في لا مبالاة قائلاً ... (عبث شباب) ..

ثم أردف قائلاً .. (للمرة الألف أحذرك قائلاً ... افعل ما بدا لك بشرط ألا تحاول المساس باسمي واسم شركتي .. هل فهمت ؟ )

- (سأحاول ... )

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان سامر حاملاً لحقيبته وعندما هم بالخروج إذا به يجد أمه يتبعها أحد الخدم حاملاً لأشياء ملفوفة بعناية ... فتعجب أن تستيقظ أمه في مثل هذا الوقت المبكر فقال ... (إلى أين تتجهين في هذا الوقت المبكر يا أمي ؟!) ..

(إنها حفلة ستقام في النادي ولابد أم نستعد لها من الآن .. هل ستأتي لترى أمك في عرض الأزياء اليوم ؟ )

(لا يا أمي .. ها أنت ترين أني أحمل حقيبتي متجهاً إلى رحلة للأقصر وأسوان مدتها أسبوع )

(حسناً ... اهتم بنفسك وإذا أردت شيئاً اتصل بنا من هناك ... هل أعطاك أبوك ما تريد من نقود ؟ ) ..

(نعم .. ولكنها غير كافية )

(حاول أن توفق أوضاعك بما أعطاك )

قال في ضيق .. (حسناً .. ولكن هل ستوصليني بسيارتك إلى محطة القطارات ؟)

(إنها ليست في طريقي .. بإمكانك استقلال تاكسياً من الطريق العام )

انطلق سامر دون أن يرد عليها وأغلق الباب خلفه بقوة .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(إني أحبك حباً لا مثيل له يا سامر) ..

نطقت هايدي بهذه العبارة ويدها ترقد في يد سامر بينما كان القطار يشق طريقه متجهاً إلى الأقصر ...

كان القطار يعج بالشباب من مختلف الجامعات .. كانت المقاعد عبارة عن شاب وفتاة متجاورين ملتصقين وكل منهما يهيم مع الآخر ...

وفجأة ... قام أحدهم وقال .. (هيا يا شباب لنرى من هو صاحب لقب "الراقص الأول" )

وعلى الفور ظهر كاسيت ضخم وبدأ تشغيله بموسيقى صاخبة وبدأت حلقات الرقص تتكون في وسط العربة .. وكل شاب وفتاة يتباران في قوة وسرعة الرقص ..

وظل الجميع على هذا الحال كأنما لم يخلقوا سوى للرقص والمجون .. إلى أن هبط الليل بأسداله ودخل أحد المشرفين وقال (كفى ضوضاء يا شباب .. فنحن نريد أن ننام )

فاتجه كل شاب وفتاة إلى كرسيه .. وأخذ يتبادلوا الأحاديث الهامسة .. وأيديهم لا تكف عن العبث .. بينما القطار يندفع ويصل إلى محطته النهائية .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان أنس راكضاً في ذلك الوقت المبكر من اليوم كعادته في كل صباح باكر .. حيث يمارس الجري خارج القرية بالقرب من تلك المنطقة الجبلية ...

كان استنشاقه لذلك الهواء الذي لم يتلوث بزفير بشري من الأشياء التي يتلذذ بها ويعلم مدى فائدة ذلك ..

طرق باب المنزل بعد أن عاد إليه .. ففتحت له أمه أسماء .. قبل جبهتها وقال لها .. (السلام عليكم يا أحن أم في هذا الكون )

ردت عليه السلام وذهبت لتعد له كوب اللبن الذي يتناوله دائماً بعد عودته من الجري وممارسة التمرينات الرياضية .... في حين ذهب هو ليغتسل ويستبدل ملابسه الرياضية بأخرى وعندما عاد .. تناول من أمه كوب اللبن قائلاً ..

(جزاك الله كل خير يا أمي .. ولكن أين أماني ؟ ) ...

(إنها تمارس هوايتها .. تطعم الدواجن وتقرأ القرآن مع مشاهدة الشروق كما تفعل في كل صباح ) ..

(هل تعلمين يا أمي ما هو أكثر شيء يسعدني في الإجازات سوءاً الصيفية أو أجازة منتصف العام ؟ )

(ما هو يا ولدي ؟) ..

احتضن أمه وقال .. (إنها تجمع شمل العائلة .. وأشعر بسعادة لا مثيل لها بسبب ارتباطنا القوي الذي لا أرى له سبباً سوى تمسكنا بكتاب الله عز وجل ) ..

ربتت على رأسه بحنان وقالت .. (أدام الله عليك السعادة في الدنيا والآخرة يا ولدي) ...

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت الشمس تدنو للمغيب ..

وهناك فوق إحدى الهضاب المتاخمة للجبال التي تكون سلسلة قوية تحمي هذه القرى القريبة من مدينة الأقصر ....

كانت الظلال تصنع أشكالاً رائعة يتغنى بها شعراء الصعيد .. ومن بين هذه الظلال .. كان هناك ظلان يندفعان في لهو وعبث .. لقد كانا سامر وهايدي ...

كان سامر يلاحق هايدي .. وأخيراً لحق بها واحتواها بين ذراعيه وهو يقول بنفس متقطع .. (هل ظننت أنك تستطيعين الإفلات مني ؟ )

انفلتت هايدي من بين يديه وتمددت فوق إحدى المناطق المنبسطة ... ونظرت إلى سامر الذي أتى وجلس بجوارها وقالت له ... (إنني لا أتخيل أن هذه الرحلة ستنقضي الليلة وأننا سنعود إلى القاهرة غداً .. باكراً )

وضع سامر يده على كتفها وقال لها .. (هل قضيت معي وقتاً ممتعاً في هذه الأيام السالفة يا هايدي ؟ )

(لقد قضيت معك أجمل أيام حياتي )

غمز سامر بعينه وقال .. (ولكن ليلة أمس هي أمتعهم على الإطلاق .. أليس كذلك ؟ )

غيمت على وجهها سحابة ضيق سرعان ما مرت قبل أن تكتمل وقالت محاولة تغيير دفة الحديث .. (ماذا سنفعل عند عودتنا للقاهرة يا سامر ؟ )

ضحك ببساطة وقال .. (سنعود إلى حياتنا السالفة .. حفلات ونزهات )

نظرت إليه وقالت .. (هل تحبني حقاً يا سامر ؟؟ )

ضحك بعبث وقال .. (وهل تشكين في ذلك ؟ .. وأنت ما مدى حبك لي ؟ )

(لقد أصبحت حياتي مرتبطة بحياتك )

مال نحوها وقال (إذن أعطني قبلة ..)

انفلتت منه وقامت مسرعة وهو يجري خلفها وأخيراً لحق بها عند حافة الهضبة وأمسك بها ...

وعندما دنا منها بفمه ... إذا بها تدفعه في تمنع مصطنع ... ولكن إذا بدفعتها البسيطة هذه جعلت قدمه تهتز ... فقد كان واقفاً على منتهى الحافة .. وإذا به يفقد توازنه ويهوي من بُعد شبه شاسع ويرتطم جسده أسفلها بقوة ثم يكمل رحلته إلى منتهى الهضبة متدحرجاً ...

وأخيراً سكن جسده بلا حراك ....

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

أطبق سامر يده بقوة على رقبة هايدي ...

كانت عيناه حاملتان لنظرة قاسية رهيبة ... وكان صوته أكثر قسوة وهو يقول ..

(لقد أردت قتلي أيتها الفاجرة ..)

كانت تحرك يديها في الهواء متشبسة بلا شيء .. وتحاول استنشاق ذرة هواء ولم تجد ...

وأخيراً بدأت أنفاسها تنفذ ...

وإذا بصرخة قوية تنطلق من حلقها أيقظت زميلتها التي تنام معها في الحجرة .. قامت زميلتها فزعة وقالت ....

(ماذا دهاك يا هايدي ؟!!)

تحسست هايدي رقبتها غير مصدقة أنها كانت في حلم والتقطت أنفاسها في صعوبة وقالت في صوت متحشرج .... (لا ... لا شيء ...)

- (ماذا حدث بينك وبين سامر يا هايدي ؟! )

قالت هايدي في فزع .. (لم يحدث شيء ... إنني حتى لم أره بعد المغرب)

قالت الزميلة في تعجب ... (ولكن الجميع لاحظوا أنكم خرجتم سوياً بعد العصر وقد عدت وحدك في حالة مزرية .... وها هي التوابع تظهر عليك بعد النوم)

قالت هايدي في خوف شديد وارتباك لا مثيل له ...

(لقد اختصمنا .. وبعدها تركته ولا أدري ما حدث له بعد ذلك)

غمزت زميلتها بعينها وقالت في تخابث ... (هل نال ما أراد ؟)

استلقت هايدي وغطت وجهها وقالت ... (دعيني لأنام .. فأنا مرهقة)

ضحكت الأخرى ضحكة قصيرة وقالت ... (لا عليك .... يكون هذا الانفعال بعد المرة الأولى فقط) واستلقت نائمة لا مبالية بشيء ....

في حين ذهبت هايدي بخيالها إلى هناك .... إلى الهضبة التي سقط من فوقها سامر .... ما زالت الصورة ماثلة أمام بصرها كأنما قد علقت على جدار خيالها ولم يعد هناك فكاك منها ... لقد سكن جسد سامر تماماً فور سقوطه ... في حين كانت واقفة مشدوهة واضعة يدها فوق فمها ... نادت عليه مرات ومرات ..... ولكنه لم يجب .... فتيقنت أنه فارق الحياة ... وما زال مشهد الجسد الممدد لا يبارح خيالها ..

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت هايدي سابحة ببصرها عبر نافذة القطار المندفع إلى القاهرة .. وكان المقعد المجاور لها خاوياً ...

كان بقية الشباب منهمكين في لهوهم وعبثهم غير شاعرين أو عابئين بها .. وإن كان بين الحين والآخر يتهامس شاب وفتاة ويغمزان بعينهما نحوها ....

وهي غير عابئة بالجميع .. أو لنقل أنها لم تكن معهم سوى بالجسد فقط .. فقد كان بصرها معلقاً هناك ... بتلك الصورة الثابتة التي لا تفارقها لحظة ...

(لقد قتلته .....)

همست بها لنفسها وهي ترتعد ....

(لقد فقدت وخسرت كل شيء يا هايدي ....)

قالتها وهي تتذكر بدايتها التي دفعتها لتلك الهاوية ...

كانت هي وصديقتها "فاطمة" كالتوأمان .. كل منهما لا تفارق الأخرى تحملان سوياً أفراحهما .. وتقتسمان الأحزان معاً ....

كل منهما مأوى وبئر أسرار الأخرى ...

حتى التحقتا بالجامعة ....

استقبلهما طلاب أسرة حورس المدعومة من إحدى الوزارات الحكومية وتنال رضا المسئولين ..

كان الاستقبال في حفل ترحيب بالطلاب الجدد ...

على الفور أظهرت فاطمة امتعاضاً مما رأت .. فقد كان حفلاً راقصاً ماجناً لا علاقة له بالأخلاق التي من المفترض أن يتسم بها طالب الجامعة ...

في حين سُرّت هايدي وقد شعرت أنها قد انتقلت من عهد تقييد وكبت حريتها إلى عهد التحرر والانطلاق ...

وكانت نقطة الافتراق ..

ظلت هايدي تشارك في كل أنشطة أسرة حورس متجاهلة كل نصائح فاطمة بأن الفتاة المتزنة لا تندفع هكذا كالهوجاء ويجب أن تحسب خطواتها وتعلم أين تضع قدمها وشيئاً فشيئاً بدأت الهوة تتسع بين هايدي وصديقة عمرها فاطمة حتى أصبح من النادر أن ترى كل منهما الأخرى ...

وفي أحد الأيام فوجئت هايدي بفاطمة أمامها ....

ولكن الجديد عليها أنها كانت ترتدي خماراً وقفازين ...

اندهشت هايدي وحاولت أن تحذر فاطمة من أن هذا هو بداية طريق التطرف والإرهاب ......

ولكن فاطمة ابتسمت ابتسامة هادئة وقالت بخفوت ... (أعلم يا هايدي أني مهما تحدثت معك لن أقنعك بشيء .. لذلك سأدخر الكلمات حفاظاً عليها .. ولكني أقول لك يا هايدي ... بل أنت التي تسيرين في طريق الانحراف .. وعندما تدركين هذا ... وعندما تكونين في حاجة إليّ .. إعلمي أن قلبي وصدري مفتوحان لك . وأبداً لن أنسى أيام الصداقة الجميلة التي كانت بيننا .. )

ومن بعدها لم تعد هايدي ترى فاطمة سوى مع كوكبة من المختمرات والمنتقبات .. وهايدي تشفق عليها وتتعجب كيف انجذبت فاطمة إلى ذلك التيار الذي يتصف بالجهل والتخلف والآراء المتعصبة .... وظلت هايدي على حالها ....

وتعرفت على سامر .. الذي لم يدخر جهداً في إشراكها في كل الأنشطة الخفية منها والمعلنة ... وهايدي كل يوم تفقد جزءاً دون أن تدري ....

فبعد أن كانت تشارك بالمزاح والكلمات الضاحكة .. البريئة وغير البريئة أحياناً .

وإذا بها تشارك في حلقات الرقص ... ثم تتنازل وتسمح ذات مرة أن يحتضنها سامر متعللة بأنها لحظة انفعال تمر ولا تعود ...... وهكذا ...

حتى أخيراً فقدت أعز ما تملك ... بالأقصر .

كانت موقنة بأن سامر يحبها وأنهما حتماً سيتزوجان وتحت الضغط على مشاعرها بالكلام المعسول والحركات غير البريئة ... استسلمت في لحظة ضعف وكان ما كان ... وانتابتها شبه إفاقة ..

ولكن صورت لنفسها أن سامر يحبها وأنه أبداً لن يتخلى عنها ولكن ...

فجأة وبدون مقدمات .. خسرت كل شيء ..

وأضافت إلى جريمتها جريمة قتل لو اكتشفت لتحطم مستقبلها وذهب إلى غير رجعة ...

هزت رأسها في حسرة وقالت ...

(وهل تبقى لي مستقبل لأحافظ عليه ... لقد ذهب كل شيء ...)

ولأول مرة منذ زمن بعيد ....

ذرفت عينها دمعة .....

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(أنا سامح صديق سامر ... هل هو متواجد بالبيت ؟)

حملت أسلاك الهاتف هذا السؤال إلى أذن سها التي قالت ..

(لا .. إنه بالأقصر ولم يعد من هناك بعد ...)

فتسائل مندهشاً .. (لم يعد بعد !!!.. كيف هذا ؟! ... لقد عاد الفوج بأكمله منذ أمس ... ولقد اختصم مع إحدى زميلاته ولم نره بعدها فظننا أنه عاد وحده إليكم)

قالت سها متسائلة بقلق .. (ألم يخبركم إلى أين هو ذاهب ؟؟ )

رد عليها قائلاً ... (لا .. إننا حتى لم نره أثناء ذهابه ...)

فقالت بتوتر ... (حسناً .. حسناً ... سنبحث عنه حتى نعرف أين هو )

فقال ... (آسف إن كنت سببت إزعاجاً لكم ... )

(لا عليك .. بل إني شاكرة لإعلامي بما حدث ...)

وأغلقت الخط دون حتى أن تسمع رده

واتصلت مباشرة بشاهين الذي كان منهمكاً في أعماله ...

فرد عليها فوجدها في قمة القلق وهي تقول ....

(شاهين .. سامر لم يعد من الأقصر بينما عاد زملاؤه منذ أمس ... )

قال في بساطة .. (وماذا في ذلك؟! .. إنه دائماً يتصرف وينطلق دون معرفتنا أو علمنا ..)

- (ولكن زملاؤه أنفسهم لا يعرفون أين هو ... )

- (لا تقلقي حتما رأى صحبة ما مع بعض السياح وأطال فترة إقامته هناك لأجلهم ..)

- (ولكنه لم يتصل بنا ليخبرنا ...)

فرد عليها ضاجراً وهو يقول ...

(وهل كان أخبرنا عندما انطلق من العريش إلى الغردقة في العام الماضي؟)

فقالت وقد بدا صوتها مطمئناً ... (أيعني هذا أنه بإمكاني السفر غداً إلى باريس دون قلق ؟)

فقال شاهين بنفاذ صبر .. (وهل أمر كهذا يعطلك عن سفرك يا سها ؟)

فقالت في حدة ... (ماذا تعني ؟؟)

فقال بعد أن تنهد (لا شيء ... دعيني لأكمل أعمالي وكفاني تعطيلاً ...)

وأغلق الخط دون سماع ردها ...

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت هايدي تسير عبر طرقات الجامعة وهي محتضنة كتبها ..

نظرتها تائهة ضائعة ... وعيناها متورمتان بشدة .. وقدماها تتخبطان أثناء سيرها ببعضهما البعض ... مما يشير إلى شدة عدم شعورها بمن حولها ....

وإذا بصوت يناديها .. تكرر الصوت أكثر من مرة حتى اخترق سمعها .. فالتفتت لترى من المنادي ... فإذا به سامح صديق سامر .. وأحد أعضاء أسرة حورس البارزين ...

فقالت وهي تبذل مجهوداً خرافياً لتداري ما بها من انفعالات ..

(خيراً .. ماذا هناك يا سامح ؟)

فقال وهو يحاول اختراق أعماقها ببصره النافذ ...

(أريدك في حديث خاص وقد يطول بنا هذا الحديث ... لذا فلنجعله في مكان هادئ .. )

سارت معه مستسلمة إلى ركن قصي لا يكاد أن يصل إليه أحد .. وقالت ..

(أي شيء تريدني لأجله ؟؟)

قال وهو مركز نظره عليها ....

(سامر لم يعد إلى القاهرة ولم يره مخلوق منذ أن سار معك إلى الهضاب والجبال المحيطة بالأقصر ..)

لم تستطع هايدي أن تمنع الرجفة القوية التي هزتها والتي لحظها سامح جيداً وقالت بصوت شبه باكٍ ...

(وما شأني بذلك ؟ .... لقد انطلق دون أن أعلم إلى أين هو ذاهب ...)

عاد سامح بظهره إلى الخلف وهو يعقد ساعديه أمام صدره وقال وهو ما زال محتفظاً بنظرته السابقة ...

(لقد قتلت سامر يا هايدي ...)

فجأة انفجرت هايدي ولم تستطع أن تمنع الدموع التي اندفعت من مقلتيها وعلا صوت نشيجها وهي تقول ...

(أقسم لك يا سامح أني لم أقصد قتله على الإطلاق .. بل إني كنت أشد حرصاً على حياته أكثر منه ..)

ابتسم سامح ابتسامة ظفر بعد وصل إلى ما يريد وقال ....

(هل تعرفين أنه من السهل أن أبلغ الشرطة بما حدث ؟! ... وسيؤيد أقوالي إرشادي إلى موضع الجثة التي ما زالت هناك وسوف يقوم الطبيب الشرعي بتحديد سبب الوفاة والجميع سيشهدون أنك آخر من كان معه ... وبعدها ....

سيحيط حبل المشنقة الغليظ برقبتك الرقيقة لينهي حياتك السعيدة )

أخذت هايدي تتشنج ولم ترد ...

في حين قال سامح من خلف ابتسامته الخبيثة ....

(إلا إذا ..... )

رفعت هايدي رأسها بقوة وقالت ....

(إلا إذا ماذا ؟؟؟ ... )

نظر سامح إلى عينيها بقوة وقال ...

(إلا إذا وافقت على ما سأمليه عليك .... )

فقالت مسرعة .... (إني موافقة ... )

ضحك ضحكة قصيرة وقال ...

(ألا تودين معرفة ما الذي سأمليه عليك أولاً ؟! )

قالت .... (ما هو ؟ )

قال ... (سأحصل لك على عمل جيد تربحين منه ربحاً طائلاً وهو عمل ممتع للغاية .. ولكن بشرط أن أحصل على نصف الأرباح ... ما رأيك ؟؟ )

قالت ... (إني موافقة .... ولكن ما هو هذا العمل ؟؟ )

قال ... (أنا أطلق عليه اسم جمعية الحب ... في حين يطلق عليه الناس اسم سخيف حيث يقولون .... "شبكة آداب" )

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت فاطمة تحث الخطى لتلحق بإحدى محاضراتها ....

وعندما رفعت رأسها لتبصر الطريق أمامها ....

إذا بعينيها تصطدمان بها ... إنها هايدي

كانت محطمة متهاوية .. ولم تشعر فاطمة سوى بشيء واحد أن عيني هايدي كانتا تصرخان بها طالبتين للنجدة ....

ولم تتمالك فاطمة نفسها فانطلقت واحتضنتها وقالت لها (هايدي .. ماذا بك ؟ .. إنك متعبة للغاية .. هل أنت مريضة ؟!)

نظرت هايدي نحوها بضعف .. فإذا بها ولأول مرة تشعر أن وجه فاطمة يشع نوراً وضاءًا ...

إنها تعرف صديقتها فاطمة منذ أن كانتا زميلتين بالإعدادية وتحفظ ملامحها عن ظهر قلب ... ولكنها تنظر لها الآن .. تجد نفس الملامح .. ولكن بها جذب غير عادي لم تكن تستشعره من قبل ....

وإذا باحتضان فاطمة لها يفجر كل مشاعرها ....

شعرت بدفء مشاعر فاطمة .. وطهرها .. وصدقها ...

شعرت بكل هذا لمجرد احتضان فاطمة لها والجملة التي تلفظت بها ... ولم تستطع هايدي أن تتمالك نفسها فانهارت باكية ....

وإذا بدموع فاطمة تنهمر وهي تقول ...

(ماذا بك يا هايدي يا حبيبتي ؟!! )

لم تنطق هايدي بحرف وهي مستمرة في بكائها ...

فاصطحبتها فاطمة إلى مكان هادئ ... وأخذت تهدئ من روعها حتى هدأت ... وبدأت تقص عليها ..

أخبرتها بكل لمحة مرت بها .. وكل موقف شهدته .. واختتمت قولها قائلة ...

(وعندما وجدني مشدوهة غير مصدقة وغير قادرة على الإجابة أعطاني مهلة يومين لأفكر ... وما زال يهددني بتدميري إن لم أخضع له .. وآخر موعد لردي عليه غداً ..)

كانت دموع فاطمة منسابة على خديها منذ أن بدأت هايدي تقص قصتها وهي غير مصدقة لما تسمع ...

انتهت هايدي من قصتها ومر وقت حتى تمالكت فاطمة دموعها وقالت ...

(لن أقول لك أني حذرتك ... ولن أظل أفاضل بيني وبينك .. ولن أسرد المواعظ والحكم ... ولكني أقول لك يا هايدي .. بأني معك يا صديقتي الغالية ولن أتركك فريسة للشياطين سواءًا كانوا من الإنس أو الجن ... وإن شاء الله سنكون سوياً حتى نتخلص منهم ...)

هزت هايدي يدها بيأس وقالت ..

(ولكن كيف يا فاطمة ؟؟ ... لقد انهار كل شيء .. ولم يعد هناك حتى خيط عنكبوت لأتعلق به ..)

قالت فاطمة بحسم ... (لا يا هايدي .. بل هناك حبل متين يجب أن تتعلقي به ... إنه حبل الله ..)

ابتسمت هايدي بمرارة وقالت .. (حبل الله !! ... وهل يقبل الله أمثالي ؟! ..)

قالت فاطمة ...

(رحمة الله وسعت كل شيء ... وهو سبحانه جل وعلا لا يرد من يطرق بابه أبداً ... )

قالت هايدي ...

(أخبريني إذن وبرد منطقي ... كيف أنجو من كل ما أنا غارقة فيه ؟؟ )

فكرت فاطمة ملياً وقالت ...

(أولاً يجب أن نتخلص من هذا الشيطان المسمى سامح )

قلبت هايدي يدها في تعجب قائلة .. (كيف ؟؟! ...)

قالت فاطمة في حسم ...

(أخبريه أنك غير موافقة ... )

قالت هايدي ... (ليسرع ويبلغ عني .. وبهذا أكون قد انتهيت )

قالت فاطمة ..

(فليبلغ كما يشاء ... المهم ألا تغوصين في المعصية أكثر من هذا .. ولكن أخبريني ... هل أنت متأكدة أن سامر هذا قد مات ؟ )

قالت هايدي .. (لقد سكن جسده تماماً .. ولم يرد عليّ عندما ناديت عليه .. )

قالت فاطمة .. (ربما يكون فاقداً للوعي .. )

قالت هايدي .. (إذا كان كذلك .. لماذا لم يعد حتى الآن بعدما استعاد وعيه ؟؟ ..)

أخذت فاطمة تفكر وقالت ..

(أنت لم تتعمدي قتله يا هايدي ... وإذا واجهت محاكمة عادلة فحتماً لن تظلمي .. وهذا ما أطلبه منك الآن .. )

قالت هايدي .. (ولكن قد يحكم علي بالسجن .. )

ردت فاطمة قائلة ....

(هذا أفضل من أن تغرقي في طوفان الرذيلة وتصبحين من بنات الليل .... أليس كذلك ؟ )

هزت هايدي رأسها قائلة .. (لست أدري .... )

قالت فاطمة .. (ثقي بي يا هايدي وافعلي ما أمليه عليك وقبل كل شيء .. أطلب منك أن تستعيني بالله عز وجل وحتماً لن يخذلك ... فهو سبحانه أرحم بعباده من الأم بوليدها )

قالت هايدي ... (سأفكر .... )

وقامت تزعم الانصراف

فأمسكت فاطمة بيدها وقالت لها ..

(ولكن أرجو منك أن تبلغيني بقرارك قبل أن تقبلي على أي شيء ... هل تعديني؟)

ابتسمت هايدي ابتسامة شاحبة وقالت ... (أعدك يا فاطمة)

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(ما هو الهدف الذي تسعى إليه كل فتاة في حياتها ؟ )

واجهت هايدي نفسها بهذا السؤال ...

وردت على نفسها دون أن تنطق قائلة ....

(أن يكون لها بيت مع زوجها الذي يحميها ... وأبنائها الذين تنظر إلى المستقبل عبر أعينهم ...)

- (وهل ما زال لديك أمل في تحقيق هذه الأمنية أو هذا الهدف يا هايدي ؟)

- (لا ... لقد تبخر تماماً .. ولم تعد هناك ذرة تشير إليه ..)

- (إذن .. لم يعد هناك ما تعيشين لأجله ... لقد دُمرت تماماً ... وضِعت .. ولم يتبق لك ما تتمسكين به )

- (إذن هل تتركين نفسك لتوضعين خلف أسوار السجن وتنالين من العذاب ما لا تطيقين ؟ ... بل قد يتم إعدامك ؟)

- (وما المطلوب مني ؟)

- (أن تنعمي بحياتك قدر إمكانك ... أن تنهلي منها ما تشائين ... هذا ما تبقى لك ..)

- (نعم .. لقد ضاع كل شيء .. ولم يتبق سوى أن أنهل من الدنيا قدر استطاعتي وأتمتع بلذاتها المتاحة .. )

انتهت هايدي .. أو انتهى بها الشيطان إلى هذه النتيجة وهي تسير لتلقى سامح ..

وسألت نفسها قائلة ...

(وهل ستذهبين لتخبري فاطمة أولاً كما وعدتيها ؟)

ضحكت ضحكة قصية متهكمة وقالت ...

(وهل أمثالي من يحافظون على عهود .. أو وعود ؟! ... وهل أذهب لأخبرها أني ذاهبة للالتحاق بجمعية خيرية ؟!!! )

(أهلاً يا هايدي )

قطع عليها تفكيرها هذا النداء الذي تلفظ به سامح .. فنظرت إليه وقالت ... (أهلاً سامح .. )

- (ترى ما الذي توصلت إليه ؟؟)

نظرت إليه وقالت ...

(قبل أن أعطيك ردي أحب أن أطمئن على عدة أمور .. )

انفرجت أسارير سامح لما استشعره من من موافقتها المبدئية وقال ...

(أنا طوع أمرك .. ما الذي تريدين الاطمئنان عليه ؟)

- (أريد أولاً التأكد من أن سامر قد مات فعلاً .. وليس متواجداً هنا بإحدى المستشفيات للعلاج .. )

قال سامح بتردد ...

(حسناً ... لقد انقضى أسبوع منذ عودتنا ... فلنتصل بالمنزل عندهم ... ونسألهم عنه ..)

قالت هايدي بحسم (الآن ... ) .. فقام سامح وقال ... (حسناً ... الآن )

وتجها سوياً إلى أحد الهواتف المنتشرة بالجامعة واتصلت بالمنزل وعلى غير العادة ... كان شاهين متواجداً هناك فرد عليها ... وعندما سألته عن سامر ... أخبرها أنه بالأقصر ولم يعد بعد ....

كان هناك خيط ضئيل من ضوء الأمل تتعلق به ... راود خيالها وتمنى كيانها لوهلة أنه ما زال حياً ...

ولكن تبخر أدنى ذرة من أمل كانت تصبو إليها ...

خفضت عينيها بانكسار ونظرت نحو سامح باستسلام فابتسم ظافراً وقال ....

(هل هناك شيء آخر ؟)

قالت ... (نعم .. حتماً سيكتشف أهل سامر مغيبه وعدم عودته وسيبحثون عنه ولن يجدوه .. فما الذي سيحدث وقتها ؟؟)

رد عليها سامح مسرعاً...

(بالطبع سيسألوننا نحن لأننا كنا آخر رفقاء له ... وأعدك أن مجموعة كبيرة ستشهد أنها شاهدته يستقل القطار عائداً إلى القاهرة وحده .. فما رأيك ؟)

قالت .. (تبقى شيء أخير ... ألا وهو أنه من الممكن أن يتم القبض علينا بسبب هذه المهنة الجديدة .. ووقتها ستكون فضيحة لا مثيل لها وتهمة القتل ستصبح عندها أهون ألف مرة )

ابتسم بثقة وقال ....

(اطمئني تماماً ... وثقي أن هذا لن يحدث أبداً .. وإن حدث فهناك أمر سيجعلك تظهرين بريئة .. وستتحدث عنك الصحف أنك مظلومة وأن هذا التشويه متعمد ليتم النيل من شرفك )

قالت بتساؤل .... (ما هو هذا الأمر ؟!)

ابتسم قائلاً .. (الجمعية تضم اثنتين من نجوم التمثيل وهن شهيرات للغاية ... وبالطبع تواجدهم بالجمعية يضمن لنا أننا إذا وقعنا ... حتماً لن ندان ...

فأنت بالطبع سمعت عن الجمعيات التي تم كشفها وكان بها ممثلات شهيرات .. وكلهن تم تبرئتهن .. وظلت الصحف تتحدث عن شرفهن مدة لا بأس بها ....

فما رأيك ؟ )

نظرت إليه وقالت ... (يبدو أنك قمت بحساب كل شيء جيداً )

ابتسم قائلاً .. (أيعني هذا أنك موافقة ؟ )

ولم ترد ......

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

نظرت فاطمة إلى ساعتها بقلق ... وأخذت تتطلع إلى هنا وهناك .. ولم تجد ما تبحث عنه ....

كانت تنتظر هايدي ...

كانت فاطمة قد عزمت ألا تتخلى عن هايدي أبداً ....

فهي تعتقد أن الشيطان يصور للإنسان خطأه على أنه النهاية ... حتى يوقعه فيما هو أبشع ...

ومهما كانت جريمة المخطئ .. يجب أن نشفق عليه .. ولو وجدنا ثقب إبرة من الممكن النفاذ إليه لمساعدته ... فيجب ألا نتخلى عنه ....

أما أن نرى فلاناً قد أجرم ... فنقول أنه قد انتهى ولم يعد هناك أمل فيه ... فهو الخطأ بعينه ...

ولم تنس أبداً موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .... عندما ابتلى الله أحد المسلمين بشرب الخمر ...

فأخذ الصحابة المحيطون والصالحون الذين عرفوا بذلك يذمون ويقرعون فيه ....

بينما قام الفاروق بإرسال خطاب لهذا الرجل يقول له فيه ...

(بسم الله الرحمن الرحيم ...

أما بعد ....

فإني أحمد الله عز وجل لك ... فهو غافر الذنب .... وقابل التوب ... شديد العقاب ... ذي الطول ... لا إله إلا هو إليه المصير .. )

فلما وصل هذا الخطاب إلى الرجل ... أخذ يقرأ ويبكي بكاءًا شديداً .. وكان ذلك سبباً في توبته توبة نصوحاً ...

وهنا قال عمر رضي الله عنه للصحابة ...

(هكذا تفعلون .... ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم .. )

مضى وقت طويل ..... ولم تظهر هايدي ...

تمنت هايدي أن يكون حادثا منعها من الخروج ...

فذهبت واتصلت بها .. فأخبروها أنها ذهبت إلى الجامعة منذ الصباح الباكر ...

شعرت فاطمة بغصة مريرة ... وقبضة قاسية تعتصر قلبها ...

فقد علمت ما هو مدلول ذلك ...

إنه لا يعنى سوى أنها قد استسلمت للشيطان .........

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

مرت ثلاثة أسابيع .....

بذلت فيهم فاطمة أقصى جهدها كي تلتقي بهايدي .. ولكنها لم تستطع ....

حاولت أكثر من مرة أن تتصل بها عبر الهاتف ... ولكنها دائماً تكون غير متواجدة ....

حاولت أن تبحث عنها في الكلية والمحاضرات .... ولكنها لم تجدها ...

وأخيراً .. نفذ جهدها وفقدت الأمل ....

فقدته وعينها دامعة لأجل زميلتها وصديقتها القديمة .....

فقدته وقلبها يبكي ويلعن هؤلاء الذين انحدروا بها إلى قاع الضياع والرذيلة ...

وإذا بها في أحد الأيام ... تجد لافتة ضخمة تعلن عن تنظيم أسرة حورس لندوة عن أضرار التدخين ...

وما جذبها أن مقررة الندوة ... كانت هايدي ....

ذهبت فاطمة وقد عاد إليها الأمل في أن تلتقي بهايدي .. وعندما رأتها ... انفطر قلبها في قوة ....

فقد كانت ترتدي ثياباً ... أقل ما توصف به أنها فاضحة ..

كانت عينها تحمل نظرة جريئة لم تعهدها فاطمة أبداً ...

وأخذت فاطمة تتابع فقرات الندوة ....

وما أثار دهشتها ... أن الندوة كانت عن أضرار التدخين بينما منظمو الندوة أنفسهم لم يفارق السيجار أفواههم طوال الندوة التي كانت تظللها سحابة عجيبة من الدخان الكثيف .

فقالت في نفسها ... (عجباً ... ألا يستطيعون التظاهر بعدم التدخين ولو أثناء الندوة فقط ؟!!! ) ............

انتهت الندوة ... أخذت فاطمة تتابع هايدي التي كانت ترافق ضيوف الندوة وتحادثهم وتضاحكهم ... وبين الحين والآخر كانت تنطلق من فمها ضحكة عالية خليعة ... كانت تدمي قلب فاطمة قبل أن ينتهي رنينها ....

وأخيراً التقت بها ...

ما إن وقع بصرها عليها حتى ارتعدت أهدابها وتوترت وقالت .....

(فاطمة !! .... مرحباً بك ... لم أرك منذ زمن )

- (أريد أن أتحدث معك يا هايدي .... )

قالت هايدي وهي تهم بالانصراف ...

(حسناً ... فليكن في وقت لاحق ... فأنا منشغلة للغاية الآن )

أمسكت فاطمة بيدها وقالت لها ...

(بل الآن يا هايدي .. )

حاولت هايدي أن تتفلت .. وإذا بصوت فاطمة الجاد الهادئ يقول لها ...

(هايدي .. إنني صديقتك الوحيدة التي تعرف كيف تفكرين وتعرف كل ما يجري لك .... أخبريني فقط ... لماذا فعلت ذلك ؟؟ )

انكسرت تعبيرات وجه هايدي وقالت بصوت حزين ...

(لقد علمت يا فاطمة أنه قد تم خطبتك ... أي أنك سيصبح لك بيت تتوجين وتصبحين ملكة فيه ... ولكن ماذا سيكون مصيري أنا ؟!! .... )

قالت فاطمة بتأثر ...

(أهذا هو الشيء الوحيد الذي أعجزك ؟!! ... أكان مدخل الشيطان لك من هنا ؟!! يا هايدي لقد قلت لك استعيني بالله وهو حتماً سيكون معك .. وأنا أثق أن هناك شباباً يملأ الإيمان قلوبهم .. وعقولهم متفتحة للغاية ... وأثق أنه حتماً سيكون منهم من يقبل أن يسترك في الدنيا كي يستره الله عز وجل في الآخرة .. )

ابتسمت هايدي بسخرية وقالت ... (دعيك من كل هذا .. لقد انقضى الأمر ... )

أمسكت فاطمة ساعدها بقوة وقالت لها .....

(مطلقاً يا هايدي ... باب الله مفتوح دائماً ... ولا ينغلق أبداً .....)

نزعت هايدي ساعدها وأبعدت يد فاطمة في رقة وقالت بحزن ... (يدك الطاهرة هذه لا ينبغي أن تمس من هي مثلي .... وأرجوك يا فاطمة أن تنسيني تماماً ... فلن أعود مهما حدث ... لقد انقضى الأمر تماماً ... )

وهمت هايدي بالسير ... فقالت لها فاطمة من بين دموعها ....

(هايدي ... أريدك فقط أن تثقي بأن الله يغفر الذنوب جميعاً ... وأن قلبي مفتوح لك دائماً ... )

هزت هايدي رأسها دون أن تنطق ..... وانطلقت ... وانتهى كل شيء .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت هايدي تقف بصحبة جمع من الفتيات تحاول إقناعهن بالاشتراك في الرحلة التي ستقوم بها أسرة حورس إلى الإسكندرية في الصيف المقبل ....

أخذت تعرض لهن المزايا والمغريات التي تقنعهن بالاشتراك ولم تتركهن إلا ووافق معظمهن ...

أما الباقيات كان العائق الوحيد أمامهن ... أن أهلهن لا يسمحون بالسفر لهن إلا برفقة أحد أفراد العائلة ....

قامت هايدي بكتابة الراغبات في الاشتراك بورقة وأعلمتهن بقيمة الاشتراك الضئيلة .... فوعدنها بالإتيان بها في الغد ....

وبعد أن أدت هايدي مهمتها ...

حملت حقيبتها ... وهمت بالانصراف ....

وإذا بها عند مدخل الكلية .... يقع بصرها على مفاجأة زلزلت كيانها ....

فأمامها مباشرة .....

كان يقف .... تزين وجهه لحية قصيرة

......... إنه سامر ............

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

صدرت من فمه آهة ضعيفة كسيحة ... وفتح عينيه بصعوبة ... وأول ما صادف بصره ... صورة القمر المستدير الساطع .. كانت ليلة مقمرة ... مشهد القمر بها يلهب خيال الأدباء ... ولكن هذا المشهد الرومانسي الجميل لم يثر في نفسه سوى الرعب الشديد ...

نظر حوله ... فوجد ظلالاً كثيرة للهضاب والصخور التي تحيطه .. كانت أشبه في عينيه بأشباح راقدة تنتظر استيقاظه لتهجم عليه وتلتهمه ..

ومن هناك ... دوى عواء طويل لذئب حمل صوته رنة الجوع الشديد .. وإذا بهذا العواء يعزف على بقية أوتار وجدانه لحناً مرعباً مخيفاً جعله يهتز من رأسه إلى أخمص قدميه لشدة الخوف الذي يعتريه ....

حاول أن يمد إحدى يديه .. ولكنه اكتشف عجزهما التام .... حاول أن يثني إحدى ساقيه ... فإذا بهما محطمتان ... فاكتشف على الفور السجن الذي وقع فيه

لقد كان كل شيء منبسط أمامه .. ولكنه العجز أحاطه بقضبان قاسية لم ير لها مثيلاً من قبل ....

واكتمل المشهد المخيف الذي لم يحلم به في ألعن كوابيسه ...

...... إنه سامر ..........

الذي لم يفق من غيبوبته سوى الآن ... في منتصف الليل ... تذكر فجأة ما حدث له منذ دفعته هايدي دفعتها البسيطة والتي ولعجبه سببت كل هذا .....

نظر إلى السماء ....

فإذا به يجد أحد الشهب يهوي بها ... إنه يعلم هذه الظاهرة العلمية جيداً ...

إنها إحدى الصخور التي تحترق عند سقوطها عبر غلافنا الجوي ....

ما زال يذكر سخريته من الشديدة عندما سمع أحد طلاب التيار الإسلامي يقول ..

(ها هو شيطان يحترق .. )

ولكنه يشعر الآن حقاً أنه حقاً هناك شيطان يحترق ..... إنه هو نفسه ..

ها هي النهاية تأتي إليه في صورة لم تمر بخياله أو بالقرب منه ولأول مرة يتلفظ لسانه بدعاء .......

قال ..... (يا رب أنقذني)

اهتز بعنف فور نطقها ... إنه ولأول مرة يشعر أن له رباً يلجأ إليه .....

لأول مرة يدرك ويعلم بوجدانه أن هناك إلها هو الواحد الذي يستطيع إنقاذه مما هو فيه ....

ولدهشته وعجبه .. إذا بالرعب المهول الذي ينتابه قد بدأ ينزوي فور تلفظه بكلمة "يا رب" ... فاهتز بعنف أكبر وإذا بحياته السالفة تمر أمام عينيه كشريط سينمائي

ولشدة أسفه لم يجد بها سوى كل شر .... فسالت دمعته وقال ...

(ترى هل ينقذني ربي وأنا مثقل بكل هذا ؟) ... وظل طوال الليل ينتظر إجابة هذا السؤال .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

وقف أنس يلتقط أنفاسه بعمق بعد أن قطع ذلك الشوط من الجري المتصل ....

أخذ يتطلع باستمتاع إلى مشهد الهضاب والربا التي تحيطه ... كانت في هذا الوقت البكر أشبه بكائنات ضخمة راقدة في سبات عميق وتنتظر موعداً ما لتستيقظ عنده ....

وهناك عند الأفق .. ظهرت أولى خيوط الشمس ... كانت كأنها أيدي رقيقة تمتد لتتحسس طريقها قبل أن تظهر الشمس نفسها .....

هم أنس أن يكمل رحلته اليومية ... ولكن لدهشته سمع صوت أنين خافت ...

عقد حاجبيه وركز سمعه ليتأكد أنه لم يتخيل شيئاً لا وجود له ...

فإذا به أنين ضعيف لا يسمع إلا بصعوبة ....

ركز سمعه أكثر ليعرف مصدره .. وما إن حدده حتى اتجه نحوه ......

وإذا ببصره يقع عليه .....

كانت ملابسه ممزقة في مواقع شتى ... وملوثة بالدماء المتجمدة في كل موضع ... وكانت عيناه متورمتان بطريقة غير عادية ...

لقد وقع بصره على سامر ... الذي ما إن سمع وقع أقدامه حتى رفع رأسه في عنف وفزع ....

ولكن ما إن رأى أنس حتى تنهد بقوة عنيفة وقال ....

(الحمد لله)

ثم سقط مغشياً عليه ..

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(ما زالت الخطوط كلها مشغولة ... ولم أستطع الاتصال بالقاهرة مطلقاً)

نطق أنس بهذه العبارة فور دخوله إلى الحجرة التي يرقد بها سامر ....

كان سامر محاطاً بالضمادات في أكثر مواضع جسده أما ذراعاه ورجلاه فقد كانوا مغمورين داخل الجبس الذي يحاول أن يجبر كسرهم ...

وبجواره كان يجلس يحيى الذي لم يتركه منذ أتى به أنس بهيئته المزرية السابقة

نطق سامر بإعياء شديد قائلاً ...

(أشكرك يا أنس ... لقد أتعبتك معي كثيراً .. )

ابتسم أنس قائلاً ....

(أنا لم أفعل سوى أقل من الواجب يا سامر ... )

قال سامر في امتنان ... (بل فعلت الكثير .. يكفي حملك لي كل هذه المسافة الشاسعة من منطقة الجبال إلى هذا المستشفى .... ومنذ أمس لم تتركني أنت ولا أبوك الكريم ...)

تدخل يحيى في الحديث قائلاً ...

(أعتقد أنه في هذا المساء من السهل أن تتصل بأهلك عبر الهاتف المتواجد بالمستشفى ... ولتضع في حسبانك أنك ستغادر المستشفى هذه الليلة بعد أن تحدثهم .... وسأستضيفك عندي حتى يأتوا إليك إن شاء الله)

قال سامر .. (ولماذا لا أبقى هنا حتى يأتوا ؟!)

قال يحيى ... (هذا المستشفى فقير للغاية ... وإمكاناته وتأميناته ضعيفة ... فمن السهل أن تجد فأراً يمر فوق وجهك ليلاً وأنت نائم ... وأظنك لحظت ذلك بالليلة السابقة .... وبالنسبة للعناية الطبية سأتفق مع أحد الأطباء ليتابع حالتك ... وسوف يأتي إليك ممرض كل يوم ليقوم بتنظيف جروحك والغيار عليها ...)

أُخذ سامر بهذا الكرم الذي أبداه يحيى نحوه فنظر إليه بامتنان وقال ....

(أظنني لن أستطيع سداد هذا الدين أبداً ما حييت)

ربت يحيى على رأسه بحنان وقال ...

(لا تشغل بالك بهذا الأمر يا ولدي ... وثق أنك عندي كأنس ولدي تماماً ..)

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(نعم يا أبي ... أنا سامر ... إنني أحدثك من الأقصر ..)

حملت أسلاك الهاتف هذه العبارة من المستشفى الصغير الذي يرقد به سامر إلى القاهرة في مكتب شاهين الذي رد عليه ساخطاً ...

(مرحباً أيها المستهتر ... ترى هل تريد نقوداً إضافية ؟ )

شعر سامر بغصة لهذا الرد الجاف وقال ...

(إنني أرقد بالمستشفى يا أبي ..... ومصاب بشدة ... وأريدك بجواري ...)

قبض شاهين على سماعة الهاتف بقوة وقال ...

(ماذا ؟!! ... وكيف حالك الآن يا سامر ؟)

- (سيء للغاية يا أبي ... متى ستأتي ؟)

(في الحقيقة يا سامر ... إنني مشغول للغاية .. وهناك عملاء كثيرون أرتبط معهم بمواعيد ...)

قال سامر بمرارة .... (ألا أستحق أن تترك كل هذه الأشياء لأجلي يا أبي ؟!)

قال شاهين .... (إنني أفعل كل هذا لأجلك يا ولدي )

- (حسناً ... وأمي ... ألا يمكن أن تأتي .. أم أن سهراتها تمنعها ؟! )

قال شاهين بضيق بعد أن شعر بلهجة سامر الساخرة ... (لا يا سامر إنها ليست في مصر .. إنها في جولة سياحية بباريس ... )

- (هل معنى ذلك أني سأبقى وحدي ؟!)

- (اسمعني يا سامر ... سأقوم بتحويل مبلغ لا بأس به باسمك على أحد البنوك ولتنفق كما تشاء ولتذهب لأفخر المستشفيات السياحية المتواجدة عندك حتى يتم شفاؤك العاجل ... )

- (حسناً يا أبي .. أشكرك كثيراً جداً )

وأغلق الخط دون أن يسمع رد أبيه ... ووجهه يحمل أشد علامات الضيق والحزن ....

كان بجواره أحد الأكواب ضربه بقوة فسقط منكسراً بصوت مدوٍ جعل أنس يدخل الحجرة مسرعاً ليرى ماذا حدث فقال في دهشة ... (ماذا هناك ؟!!)

قال سامر بضيق ... (لا شيء .. )

نظر أنس للكوب المحطم بدهشة وسأله ...

(متى سيأتي أهلك يا سامر ؟؟ )

قال سامر بحنق ... (لن يأتوا أبداً .... )

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان سامر يحاول أن بشتبك بالنوم ... ولكنه لم يستطع ... كان فكره وعقله يجولان بشدة ....

ما زالت تلك الليلة العصيبة تحفر معالمها داخل نفسه .. كانت ليلة رهيبة لم ولن ير لها مثيلا ....

ولكنها جعلته يفيق ...

كان لا يعرف من الدنيا سوى اللهو والعبث ....

لم يكن يعرف سوى السهرات الماجنة والنزهات المتفرقة ... كم تسبب في إفساد أخلاق الفتيات والفتيان ... كم سعى لتضليل مالا يحصى من الشباب ....

ولكن هذه الليلة ....

جعلته فجأة يشعر أن هناك إله جبار منتقم ...

كل لحظة مرت به .. كانت تشعره بذلك ...

وهنا قرر أن يتوب

قرر أن يتوقف عن سبيل المعاصي الجارف التي كان يرتكبها ... قرر أن يسعى إلى الله إن عرف له سبيلاً ....

وهذه العائلة .. التي أرسلها القدر إليه ....

إنه يشعر أن هناك شيئاً غير عادي بها ....

وهناك ريب ينتابه نحوهم ...

فمنذ أن رأى لحية يحيى .... وكثرة تلفظ أنس بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية بين الحين والآخر ... وهو يشعر أنه وقع بين إحدى الأسر التابعة للإرهابيين الذين يسمع عنهم ...

فهناك ... بنادي حورس .... كانوا يلقون لهم محاضرات عن هؤلاء الإرهابيين وعن أخلاقهم وأنهم قوم جاهلون يتلقون تمويلاً من الخارج ... وأن قلوبهم قد صبت من الحجر الصلب .. وأن ... وأن ... من كل تلك الصفات التي تملأ الصحف ...

كانوا يلقنونهم قائلين لهم ... أن شباب حورس هم الذين سيحاربون هذا التيار ... وسوف ينتصر عليه ولكنه الآن يتساءل ....

أي حرب هذه التي كانوا يمارسونها ؟!!

هل المجون والخلاعة والفسق والفجور هي الأسلحة التي تتم بها المحاربة ؟!!!

عموماً ....

إنه لم ير من هذه العائلة إلى الآن سوى كل كرم وخلق قويم ... وها هو بينهم وسيكتشف ويعرف عبر الواقع ... ما هو الأمر على حقيقته ....

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

استيقظ سامر على غير عادته مبكراً .....

كانت زقزقة العصافير تصل إلى سمعه ... وصياح الديكة يصنع معها سيمفونية جميلة لأول مرة يشعر سامر بجمالها ... أو ربما هي أول مرة ينتبه لهذا ....

نظر حوله ... فبدأ يتبين حجرة أنس التي تركها له ليستقر بها إلى أن يتماثل للشفاء ...

لقد دخلها ليلاً مرهقاً ونفسه تحمل من الضيق ما جعله لم يتبينها ....

كانت حجرة بسيطة ولكنها منمقة ومنظمة في عناية ....

وأمام المكتب المتواجد بها ... كانت توجد صورة للمسجد الأقصى ... صورة كبيرة تمثله والنجمة السداسية الصهيونية تطوقه ... ولكن هناك يد قوية تمتد لتحطم هذه النجمة ... وما يعرفه سامر ... أن هؤلاء القوم يتسترون خلف تلك القضايا ... كقضية الأقصى ومذابح المسلمين ليستعطفوا مشاعر الناس حولهم ويجعلوهم يتناسون ... أو لا يشعرون بنواياهم الخبيثة ...

شعر سامر بآشعة الشمس تمر عبر فرجات النافذة التى بجواره..

فقد كان سريره ملتصقا بالحائط..وبجواره نافذة صغيرة لم يعرف بعد على أى شىء تطل ...

جاهد سامر ورفع يده حتى دفع المزلاج ..وبذل جهدا خرافيا حتى فتحها...

كانت الشمس فى بداية شروقها .. نظر عبر النافذة ..فوجدها تطل على ساحة ملحقة بالمنزل ..و فى أحد جوانب هذه الساحة كانت توجد حظيرة للدواجن...

وهناك رآها...

كاننت قد أعدت الطعام للدواجن وتعد الموضع الذى تجلس به كل يوم...

وسرحت ببصرها نحو الشمس ...

كانت نظرتها حالمة رقيقة ...

إنها أمانى ...

إنقبض قلب سامر فور أن رآها..

شعر ان آشعة الشمس إنما هى منبعثة من خلال هذا الوجه لتنعكس على الشمس... التى تقوم بنشرها إلى كل أنحاء الوجود...

كان وجهها منيرا بقوة جذبته ..

لقد رأى وتعامل مع أكثر الفتيات فتنة وجمالا..

ولكن ...

بالرغم من أن ملامحها عادية وجمالها هادئا...

إلا أن بها جذب قوى لا يدرى له سببا ..شعر فور أن رآها باطمئنان لا مثيل له و

شعر بالهدوء يحتويه...

أحس بنشوة لم يجربها من قبل ...

ولم يمل أبدا من النظر إلى وجهها السابح الحالم الهادىء...

وعندما إكتمل شروق الشمس وارتفعت بقرصها قليلا مدت يدها وأخرجت مصحفا.. وفتحته وبدأت تقرأ فيه ...

يا إله الكون !!

ياله من صوت ملائكى رخيم ...

لقد إستمع إلى كل المطربات والمغنيات..العربيات منهن والعالميات ...

ولكنه لم يسمع صوتا كهذا قط ...

بدأ يركز سمعه...

فإذا بها آيات قرآنية يسمعها لأول مرة...

وإذا بها تهزه فى عنف لا مثيل له..

كان كأنه أول مرة يعرف أن هناك قرآنا قد أنزل...

كانت الآيات تنفذ إلى أعماقه وتحتويه وتهز كيانه..

وإذا بها تقرأ فى سورة النمل..

كانت كل الآيات تنتهى بالسؤال الإستنكارى التعجبى (( أإله مع الله ؟!! )) ..

حتى وصلت إلى قوله تعالى ..

(( أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض...

أإله مع الله ؟!! قليلا ما تذكرون ))

لم يستطع أن يوقف سيل دموعه المنهمر وجسده كله يهتز ...

كان يشعر كأنه يدخل الإسلام من جديد .. كانت الآيات كأنها لم تنزل سوى له ..

كانت الكلمات تنطق بأنه قرآن عظيم منزل من لدن العظيم ...

وإذا بشعور جديد ينتابه ...

لأول مرة يشعر أنه ينتمي لدين خالد .. به كتاب عظيم كهذا القرآن الكريم ...

أخذ سامر يتطلع إلى أماني .. إنها ليست فتاة .. بل هي إحدى حورالجنة النقيات الطاهرات ...

إختتمت قرائتها .. وقامت داخلة إلى المنزل بعد أن تركته وقد أحيت فيه مشاعر عظيمة لم يكن يظن أنها به ...

ظل سامر مأخوذا بالأيات يرتعد جسده ويهتز و هو يقول ..(( ترى هل يقبلني ربي ويتوب علي ؟ )) ..

وإذا بأنس يطرق بابه ويدخل في هذه اللحظة ...

كان مرتديا زيه الرياضى وعائدا من جوليه الصباحية ...

نظر إلى سامر .. فوجده ودموعه مبللة ثوبه وملامحه تنطق بالتأثر الشديد...

فقال أنس في رفق ..(( أما زلت متأثرا لأن أحدا من أهلك لن يأتي إليك ؟.. فلتعدنا أهلا لك يا سامر ..))

نظر سامر نحوه وقال له ..(( كم تحفظ من القرآن يا أنس ؟..)) ..

كان السؤال مفاجئا لأنس .. ولكنه رد عليه قائلا .. (( الحمد لله أحفظ القرآن الكريم كاملا )) ..

فسأله سامر بإهتمام .. (( إذا كنت قد أتيت من الذنوب ما تخر الجبال من هولها ... ترى هل من الممكن أن يقبل الله توبتى ويغفر لى ؟ ))...

جلس أنس بجواره وقال ..

(( يقول الله عز وجل ..( قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ..إن الله يغفر الذنوب جميعا ..إنه هو الغفور الرحيم ) ..)).

قال سامر ..(( ولكن هذه المعاصى التى فعلتها هل ستذهب سدى ؟ أم ماذا سيكون مصيرها ؟؟ ))..

رد عليه أنس قائلا ..(( الله سبحانه وتعالى يقول ..( إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا .. فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات .. وكان الله غفورا رحيما ).))

سالت دموع سامر وقال ..

(( أشكرك كثيرا جدا يا أنس.. لقد أرحت قلبى ..))

وتنهد فى قوة كأنه يفرغ حملا ثقيلا فوق صدره وقال ..

(( هل تعرف يا أنس .. لقد نشأت في بيت لم أر فيه سجدة لله ..لم أسمع به آية من قرآن .. آخر كلمة من الممكن أن تسمعها هي كلمة {الله} ..ولا يكون النطق بها سوى عند الحلف الكذب غالبا ... وأتت الصحبة من أفسد ما يكون ..

إقترفت من المعاصي مالا تتخيل ..لم نترك رزيلة إلا وفعلناها ..وكأننا خلقنا لا لشيء سوى المعاصى .. وإذا بما حدث لي يجعلني أفيق ...

أريدك بجواري يا أنس .. فلتعدني كأني أدخل في الإسلام لأول مرة .. ولترشدني إلى تعاليمه ...)) ..

قال أنس (( لا تقلق يا سامر .. الله عز وجل رحمته أوسع مما تتخيل .. ولابد أن هذه الحادثة كانت لإنتشالك مما كنت فيه .. فلتحمده سبحانه عليها .. وأنا معك ولن أتركك أبدا ...))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت أسماء تحمل صينية وقد رص عليها أشهى الأطعمه وهى داخلة إلى الحجرة

التى بها سامر ...

ونطق أنس قائلا..(( أمى أصرت على أن تقدم لك الطعام بنفسها...)) .... ابتسم سامر بود وقال ..(( العائلة كلها لا أحمل لها سوى الشكر الذى ينطق به كل ذرة فى كيانى ..))..وضعت أسماء الطعام بجانبه ونظرت له..كانت مما عرفته لما أصابه ..وتجاهل أهله له يثير بقلبها الشفقه نحوه.. لذلك أصرت على أن تقدم له الطعام وتطيب خاطره بكلمات ...

كان مشهد الضمادات التي تحيطه جعل قلبها يرق له وشعرت أنها تريد أن تضمه إلى صدرها كما تضم أنس إليه وتربت على رأسه وتمنحه من الحنان ما فقد...

جذبت أسماء مقعدا وجلست بجواره وقالت له ..

((أريدك يا ولدي أن تشعر بأنك بين أمك وأبيك وأخوتك .. وتكف عن لهجة الشكر هذه وهيا تناول طعامك جيدا .. فالغذاء الجيد يساعد على إلتئام جروحك )) ...تناول سامر قطعة من الطعام الذي أمامه وقال باستمتاع ...

(( أقسم أني لم أذق طعاما أشهى من هذا أبدا ...)) ..

قالت أسماء ضاحكة ..(( لا تبخس أمك قدرها .. فحتما هي طاهية ماهرة ..)).

إكتست ملامح سامر بالأسى وقال بمرارة ..(( أمي !! إنها لا تدري أي الطرق بالمنزل يؤدي إلى المطبخ ..ولكنها تعرف جيدا كيف تتزين وما هي آخر خطوط الموضة العالمية ...))..

قالت أسماء بجدية ..(( لا تتحدث عن أمك هكذا أبدا .. وكفاك أنها السبب في مجيئك إلى الدنيا ..)) .

وقالت محاولة تغيير دفة الحديث ..((ما هو مشروبك المفضل كي نعده لك ؟..))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

مر أسبوع على سامر لم ير أروع منه فى حياته كلها... حنان لم يعهده..أوربما لم يتذوقه ..إلتمسه من هذه الأسرة الصغيرة ...

يحي ... كان يعامله كأنه أحد أولاده وبحب صادق ولم يكن ينام إلا عندما يطمئن عليه و يربت على رأسه ...

أسماء ... محيط من الحنان .. بل هي الحنان نفسه .. كانت تعد له طعاما ربما لم تعده لأسرتها من قبل .. وكانت دائما تصر على تقديمه إليه بنفسها والإطمئنان على أنه قد نال إعجابه ..

أنس ... القوة الإيمانية الفتية .. وبنك المعلومات المتحرك .. لم يبخل على سامر بمعلومة في أي مجال .. فقد كان يحمل ثقافة لا مثيل لها .. وقد أفاض على سامر من بحر إيمانه ... وكل يوم يمر كان يرقى بسامر إلى أفق جديد لم يدركه من قبل ..

أماني ... الواحة الوارفة الظلال .. والنسمة الرقيقة .. جلستها الصباحية ينتظرها سامر بلهفة لا مثيل لها ... ويظل يتطلع إليها وإلى وجهها السمح الرقيق ويستمع إلى صوتها الشجي الذي يشعره أن القرآن إنما ينزل في هذه اللحظة .. وأنها إنما هي إحدى الملائكة التي تتلوه ...

كان سامر يتمنى ألا تنقضي هذه الأيام أبدا ..

كان يرجو ألا تلتئم جروحه كي يظل أطول مدة ممكنة معهم ...

كان ترابطهم وشدة حبهم لبعضهم البعض يدهشه .. ربما لأنه لم يعهد ذلك من

قبل ...

وفي كل يوم يمر ..كان يرصد بعينيه وعقله ما يدور حوله .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(( حسبنا الله ونعم الوكيل ... ))

نطق أنس بها وعينه تفيض بالدموع بعد أن استمع إلى نشرة الأخبار التي تبثها إحدى وكالات الأنباء العالمية ...

كانت الأنباء تحمل تفاصيل إحدى المجازر التي تعرض لها المسلمين في إحدى بلاد البلقان ..

نظر سامر إليه بتعجب وقال .. (( ما الذي يبكيك بهذه الدرجة ؟! ))

قال أنس بانفعال .. ((أما سمعت بما حدث للمسلمين هناك ؟! .. أرأيت عدد الأطفال الذين ذبحوا أمام آبائهم ... والنساء اللاتي أغتصبن على مرأى من أزواجهن .... هل ترضى بذلك لأهلك يا سامر ؟ .. إنهم مسلمون بنوا عقيدتنا وما يمسهم يمسنا ..)) ..

شعر سامر بصدق أنس التام في كل ما يقول .. وأنه يعبر حقا عمل يجول بصدره ... ولكنه قال متسائلا ..

((ولكن هؤلاء الذين يملئون الصحف صراخا وعويلا على مذابح المسلمين ومآسيهم .. ماذا فعلوا لهم ؟؟ .. إنني أظن أنهم يتسترون خلفها لينالوا أغراضا أخرى خبيثة )) ..

إعتدل أنس وقال في إهتمام ...

(( يكفي ما فعلته لجنة الإغاثة الإنسانية التابعة لنقابة الأطباء ..

فهي أول من سارع لتقديم المعونات للمسلمين في البوسنة والهرسك ... فقد أقاموا مشروعا يسمى } مشروع الخشب { يقوم بجمع التبرعات البسيطة وتقديم ما يمكن المسلمين من الحصول على الدفء من البرد القارص وسط الجليد هناك ..

وأقاموا أيضا .. مشروع كفالة أيتام البوسنة ..

فكانت لديها إستمارات .. كل إستمارة بها بيانات أحد هؤلاء الأيتام مع صورة له .. وإذا أراد أحد المسلمين كفالته يقوم بعمل تعاقد مع اللجنة .. ويدفع قيمة الكفالة الشهرية ... وتقوم النقابة بالباقي ..

وكذلك .. من المعروف أنه في الحج يضيع أغلب ذبائح الهدي ويتلف لعدم وجود

أو صعوبة الحصول على مستحقيها هناك ...

قامت اللجنة بعمل مشروع آخر لنقل هذه الذبائح إلى هناك ...

لقد قال أحد المسؤلين البوسنويين وقتها .. (( والله لولا لجنة الإغاثة هذه لقلنا أنه لا يوجد مسلمين يشعرون بنا ..))

وعندما وقعت مذبحة الخليل التي قتل فيها المسلمين في فلسطين أثناء سجودهم في فجر رمضان على ايدى اليهودي القذر( جولدشتاين ) .. كانوا أول من سارع لمنح المساعدات لأهالي الشهداء ..

وهنا في مصر .. عندما وقع زلزال عام 1992 م .. أول جهة رسمية انطلقت ونصبت خيامها للمنكوبين .. كانت أيضا هي لجنة الإغاثة الإنسانية ..

وغيرها ..وغيرها الكثير .. ولكن التعتيم الإعلامي والتشويه المتعمد يجعل قيمة هذه الأعمال غير مدركة ...

ولكن قبل كل شئ .. هي لوجه الله .. واستشعار حقيقي لما يحدث لهؤلاء المسلمين ومحاولة تقديم ما بالأيدي لهم ))

سكت سامر ولم يستطع أن يفه بحرف .. ونظر إلى أنس وقال ..

(( ولكن أليس هؤلاء هم أنفسهم الذين يوجهون الضربات والتفجيرات ضد شعبنا المصري المسالم .. وكذلك ضد السياح لضرب أحد مصادر إقتصادنا الهامة ؟! ويقومون كذلك بتكفير المجتمع كأنه لا يوجد مسلمون غيرهم !! ))

إبتسم أنس بود وقال .. (( إعلامنا يخلط الصالح بالطالح .. ويضرب المحسن بما فعله المسئ ... أخبرني أولا يا سامر .. ماهي معلوماتك عن الجماعات الإسلامية ؟؟ ))

قال سامر ببساطة .. (( كلهم فكر واحد ومنهج واحد .. ألا وهو التعصب الأعمى والفكر الضال المبني على العنف .. ))

تنحنح أنس وابتلع ريقه وبدأ شارحا يقول .. (( يجب أن تقرأ من عدة مصادر كي تعرف الحقيقة يا سامر ..ولا تسلم عقلك لمصدر واحد .. ولا تجعل نبع معلوماتك إتجاه منفرد ...

عموما اخبرك بما عندي وأنت يجب أن تستوثق منها .....

الجماعات المتواجدة على الساحة الآن تنقسم إلى ثلاثة أقسام ... القسم الأول يفضل العمل المسالم ويكون جل تركيزه هو المحافظة على السنة ومحاربة البدع والبحث في الأمور العقائدية ... وبعضها يغالي في التشدد ..

القسم الثاني وللأسف هو السبب في هذا التشويه المتعمد لكل الإتجاهات الأخرى فهو قد نهج منهج العنف كما تقول أنت وذلك عن فهم خاطئ لبعض أحكام الدين.. وهم للأسف يسيئون للإسلام أكثر مما يتصورون ....

والقسم الثالث هو تيار يمتاز بالوسطية والإعتدال ... فهم الإسلام فهما كاملا شاملا .. لم يأخذ منه الجانب العقائدي فقط أو الجانب الحركي وحده ...

فقد عرف أن الإسلام دين حركي شامل لكل مقتضيات الحياة وأنه دين الخلود .. وعملوا بهذا الفهم وانطلقوا به في كل مجال محققين كل المعاني التي يؤمنون بها والتي هي نفسها تعاليم الإسلام ولكن عن فهم عميق له ...

وهم الذين يحاربون محاربة شرسة ويتم تشويه أعمالهم وأهدافهم بقوة ... ويكفيك أن تقرأ تاريخهم في كتاب } أحداث صنعت التاريخ { للأستاذ عبد الحليم محمود وهم أنفسهم الذين يهتمون بكل القضايا المحلية والعالمية ....

إنني أقول لك يا سامر ... إقرأ وسع إمكانك .. وببصيرتك حتما ستصل إلى الحقيقة ..))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(( كفاك تذويبا لقلبي ..... ))

نطق بها سامر وهو يتطلع إلى أماني في جلستها الصباحية ...

فقد أصبحت هذه الجلسة كالدواء الذي يذهب بأسقامه وإن توقفت هلك وأنتهى ..

كان قلبه ينبض في عنف حين يراها .. ويظل محافظا على دويه طوال جلستها وجسده يرتعد في نشوة ...

ويظل يسبح بخياله ووجدانه معها بعد إنصرافها إلى أن تحين الأخرى ..

لقد تذوق قلبه الحب النقي لأول مرة .....

كم أوهم الفتيات بحبه لهن .. إنه لا ينكر أنه كان ينجذب لهن .. ولكنه إنجذاب إلى مثيراتهن الأنثوية من جمال وفتنة وغيرها ..

أما هذه ....

إنه ينجذب إلى نقائها .. لملائكيتها .. لها كلها بلا تجذء ..

إنه يحب حبا تمكن من كيانه وأسر عقله واحتواه .

إستدارت بوجهها قليلا فبدأت تحجب عنه .. فحاول أن يتحرك قدر إمكانه كي يستطيع رؤيتها .. رفع يده فإذا بهاتصطدم بضفة النافذة فتنغلق في عنف محدثة صوتا مدويا ..

نظرت أماني نحوه في فزع .. فاكتشفت أنه يطل عليها .. فوضعت يدها على وجههاوقامت مسرعة إلى الداخل ...

في حين ضرب سامر النافذة برأسه في حسرة وقد أيقن أنها المرة الأخيرة التي سيراها فيها ..

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(( إنها مهندسة كمبيوتر ... ))

نطق بها أنس مجيبا عن تساؤل سامر الذي كان يستفهم عن مهنة أماني ...

فقال سامر في دهشة .. (( مهندسة كمبيوتر !! .. أليست منتقبة ؟! ))

قال أنس .. (( وما العجب في ذلك ؟! هل النقاب يمنع العلم والتفوق فيه ؟ ..

بل التي ترتدي نقابا حتما تفقه تعاليم دينها جيدا وأن منها طلب العلم النافع .. وأن المسلمين يجب أن يكونوا في مقدمة الأمم في كل مجال كما كانو دائما ...

وانظر بنفسك في كليات الجامعة تجدهن في كليات الطب والهندسة والصيدلة وغيرها ... وبالطبع يكن متفوقات .. ))

قال سامر ..(( لست أنكر أني كنت دائما أستشعر أن هذا النقاب إنما يجعل الغطاء على عقولهن الخاوية .. فلا يدرين شيئا سوى تعليمات التعصب الأعمى .. ))

إبتسم أنس وقال .. (( أكرر عبارتي الدائمة .. تشويه متعمد .. ))

قال سامر وكأنه قد تذكر شيئا ما .. (( لدي أحد أجهزة الكمبيوتر وهناك مشكلة دائما تواجهني أثناء العمل عليه .. أليس من الممكن أن أتحدث إليها وأعرف حلا لها ؟ .. ))

نظر أنس نحوه وظن أنه غير مصدق لما قال وإنما يريد أن يتأكد بنفسه .. ففكر مليا وقال .. (( لا مانع .. أعتقد أنه بإمكانك السير الآن .. في المساء إن شاء الله سنهبط إليها وتعرف ما تريد .. ))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

حجرتها أنيقة رقيقة .... ومليئة بالأعمال اليدوية التي توحي أنها أنثى لديها حس فني بارز ... وفي أحد أركانها يوجد الجهاز ..

وعندما بدأ سامر في إستعراض مشكلته قال ..

.. (( إنني أواجه مشكلة في عدم قدرتي على تحويل برنامج } باسكال {

مثلا ثم تعريبه عن طريق النافذة4 .. وعند تحويله لبرنامج تنفيذي لابد من تحميل برنامج النافذة4 ... فكيف أستطيع حل هذه المشكلة كي يعمل البرنامج تلقائيا دون تحميل النافذة4 ؟؟ )) ..

تنحنحت أماني وقالت في خفوت ..

(( من المعروف أن برامج التعريب مثل } النافذة4{ تقوم بتحميل نفسها في الذاكرة وتظل مقيمة فيها كي يتمكن المبرمج من إستخدام اللغة العربية ..

وتقوم هذه البرامج باستبدال بعض الحروف الغير مستخدمة بالحروف العربية عند تحميلها في الذاكرة ... وهكذا

فلكي يتم تشغيل برنامجك بنجاح يجب أولا تحميل برنامج التعريب ثم تشغيل البرنامج .. ويبدوا أنك لا تقوم بتحميل برنامج التعريب قبل تحميل برنامجك .. لذلك فإن البرنامج لا يعمل كما يجب ..

فإذا كنت تريد تحميل النافذة يدويا قبل كل تشغيل للبرنامج الخاص بك فيمكنك إستخدام ملفات الدفع {batch files } ... فمثلا إن كان البرنامج الخاص بك يسمى { myprog.exe } والملف المطلوب تشغيله لتحميل النافذة هو {naf.com } فيمكنك إنشاء ملف نصي .. {text file } وكتابة السطرين التاليين فيه ... naf

myprog

ويمكنك أن تسمي هذا الملف {run.bat } وهكذا كلما كتبت كلمة { run } وضغطت مفتاح الإدخال يقوم النظام أوتوماتيكيا بتحميل برنامج التعريب ..ثم تشغيل برنامجك.. ))

نظر سامر نحوها منبهرا وقال (( يالك من عبقرية !! )) .

وظل يسألها وهي تجيبه وأصابعها تتحرك على لوحة المفاتيح في سرعة وبراعة

كان سامر يحاول إطالة الحديث قدر إمكانه .. فهو يعلم أنه من الصعب ان يراها أو يتحدث معها بعد ذلك ...

وحين إنتهى الحديث ..

كان الفراق أشبه إليه بنزع قلبه من صدره ...

نظر نحوها ... كان يتمنى أن يخترق نقابها ببصره وإن كان يحفظ ملامحها عن ظهر قلب .... وأخيرا قال في ألم ... (( السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ))

ردت عليه السلام في خفوت ...

ولكن نبراتها مازالت تسكن أذنه حتى الآن ...

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان سامر قد بدأ يتماثل للشفاء ...

وكان أكثر ما يسعده شفاء روحه .. لقد طهرت تماما من الأدناس .. فقد شعر أنه قد ولد من جديد .

لقد تذوق من قبل كل المتع المحرمة وغير المحرمة .. ولكنه يقسم أن متعة القرب من الله عز وجل لا تدانيها متعة أخرى .

فياله من إحساس رائع حين ترفرف بروحك في الفضاء ..

ويالها من نشوة حين تنام وأنت تشعر أن كل ذرة وخلية بك .. راضية عنك .

لقد إغتسل سامر جيدا .. وارتدى ثوبا جديدا صنع من الطهر والإيمان ..

وأهلا بعهد جديد ....

وفي إحدى الليالي .. كانت الساعة متأخرة من الليل .. وكانت النافذة التي بجواره مفتوحة والقمر أمامه مباشرة ... أخذ يتطلع إليه بنشوة واستمتاع ..

إكتشف سامر أن بداخله مشاعر رومانسية جميلة ولا مثيل لها .. ربما يكون قد إكتسب ذلك منها .. من أماني .. التي لم يعد يراها منذ إكتشفت رؤيته لها .

فأسماء أصبحت هي التي تطعم الدواجن .. وربما تكون أماني تشاهد الشروق في أي مكان آخر غير هذا الموضع .. أو علها لم تعد تشاهده بسببه ...

كم آلمه عدم رؤيته لها ... كم يوجعه مغيبها عنه ...

أخذ يسرح ببصره ويتذكر جلساتها السالفة ويستعيد تفاصيلها ... وكلما إستعاد لمحة .. إستعر اللهيب بداخله ..

أخذ يفكر ترى ما الذي يطفيء هذا اللهيب ؟؟ ... لم يجد سوى أن يذهب ليتوضأ ويصلي ركعتين عسى الله أن يخفف ما به .

قام متهاديا وسار ببطء إلى الحمام المتواجد بالمنزل ..

وإذا به وهو يتهادى .. يجد إحدى الحجرات ينفذ عبر فرجات بابها الضوء .. كانت في طريقه أثناء ذهابه لما يريد .. وعندما مر أمامها .. وكأمر فضولي .. تطلع عبر الفرجات ... فوجد الحجرة تضم جمعا من الرجال مع يحيى .. كان أغلبهم من الملتحين .. وكانو يتحاورون في أمر ما وباهتمام شديد .

كانت فرصة ذهبية ليستطلع ويعرف لأي شيء يدبرون .. وبعيدا عن المحاضرات التي ألقاها على سمعه أنس .. سيعرف كل شيء عبر الواقع ...

كان صوت يحيى مميزا وهو يقول : (( وبالطبع في رمضان المقبل لابد وأن نكثف الدروس الدينية التي تبصر الناس بأمر دينهم .. ففي هذا الشهر تكون الأنفس متقبلة ونازعة نحو الخير ... وبالنسبة للمثقفين سنحاول أن نصدر لهم كتيبا يحوي أغلب الأحكام الشرعية المتعلقة بشهر رمضان من صيام وقيام وغيره ولابد وأن نركز على أحكام الزكاة .. فأغلب الناس يجهلون نصابها سواء كانت زكاة فطر أو مال أو غيرها ))

أكمل آخر الحديث قائلا : (( أرجو أيضا ألاننسى الأيتام والأسر الفقيرة .. فيجب أن نشكل لجنة تجمع التبرعات لنأتي بهدايا لهؤلاء الأطفال ومساعدات لأسرهم .. حتى لا يمر عليهم رمضان والعيد وهم ينظرون إلى غيرهم يتمتعون بالجديد في حين أنهم يشكون الجوع والبأس .. ))

كان الحوار بأكمله يدور حول سبل إحياء النزعة الدينية لدى أهل القرية ومحاولة مساعدة المحتاجين بها ..

وفي النهاية قال يحيى : (( حسنا بالنسبة للمبالغ اللازمة لللافتات والكتيبات التي سنصدرها .. سنجمع تكلفتها منا الآن ... اما الهدايا والمعونات التي سنقدمها .. سنحاول أن نقنع أغنياء القرية ذوي الكرم والمروءة ليتبرعوا لها .. وبالطبع سنشترك معهم لأنه ثواب عظيم يجب ألا يفوتنا .. والآن فلنقسم العمل علينا .. ))

إنطلق سامر بعد أن إكتفى بهذا الحديث ..

وبعد أن عرف لأي شيء يخططون .. ومن أين تأتيهم التمويلات .

كانت دموع سامر تسيل بإنهمار وهو يحتضن أنس ويقول له :

(( أقسم لك يا أنس أني لن أنساك أبدا ما حييت .. لقد أعدت إلي الحياة .. فأنا لم ولن أجد لك مثيلا .. فأنت متفوق في دراستك .. مثقف الفكر .. قوي الإيمان والعقيدة والبدن .. نافع لمجتمعك .. تجاهد كل الأهواء .. أنت مثال للمسلم الحق .. أدعوا الله عز وجل أن أكون مثلك . ))

لم يستطع أنس أن يحبس الدمعة التي في مقلته وقال :

(( أنت ياسامر أخي .. وحتما لك بقلبي مقدار غير هين من الحب فلا تنساني من دعائك أبدا .. ))

وربت على كتفه وقال : (( هيا .. فأبي وأمي ينتظرونك بأسفل .. ))

هبط سامر برفقة أنس .. ووجد يحيى وأسماء في انتظاره .. نظر إليهما بتأثر ..

ثم لم يلبث أن إندفع ملقيا بنفسه في أحضان يحيى ودموعه تسيل في غزارة وقال

(( أنت نعم الأب ورب الأسرة ولن أنسى أبدا ما أفضته علي من حنان ورعاية ))

ربت يحيى على كتفه برفق وقال : (( إعلم يا ولدي أن بيتي مفتوح لك أبد الدهر

وأسرتك هنا تنتظرك وقتما تحل وحينما تريد .. ))

قال سامر في إمتنان : (( أشكرك كثيرا جدا يا أبي .. أرجو أن تسمح لي بنطقها لأني أستشعرها بأعماقي يا أحن أب في الوجود .. ))

والتفت سامر ناحية أسماء التي إبتسمت بود وقالت :

(( لقد علمت من أنس أنك ولدت معه في يوم واحد .. وبهذا فإني أعد نفسي أنجبت توأما .. أنت وهو ... وها هي أمك تقول لك : إئت إلينا كل عام ولا تنسنا أبدا ))

إبتسم سامر بحزن وقال :

(( كم أتمنى لو كنت أنتمي إلى هذه العائلة .. عائلة نموذجية حقا تحمل من الإيمان والمثالية ما لو تحقق في كل الأسر .. لساد المسلمون الأرض وملكوا العالم أصبحو أساتذة له ...

والآن أقول لكم وقلبي ينزف : إلى اللقاء وأنتم بقلبي دائما ... ))

وانصرف سامر ولم تتحقق له أمنية كان على أتم الإستعداد لبذل شطر عمره مقابل تحقيقها .. ألا وهي أن يراها ولو من بعيد ...

أن يرى من منحت قلبه مصدرا للطاقة الأبدية وأعطته سر الخلود ... إنها أماني ...ولكنها أمنية لم تتحقق ...

إنطلق سامر عائدا إلى القاهرة بعد أن تعافى ...

وكان هذا هو آخر يوم له في الرحلة .

الفصل الثالث

آباء و أبناء

كانت منطلقة وقلبها يختلج في صدرها ...

خطواتها لم تكن عاديه .. بل قفزات ... ها هي الآن وقد عادت إليها الحياة .

كانت تظن أن الدنيا قد أظلمت ولم يعد بها خيط من ضوء الشمس ..

وكانت تعتقد بأنها قد إنتهت ولم يعد لها بقية .

وإذا بكل هذا ينحسر ويندحر ...

إنها هايدي .....

فمنذ أن إلتقت بسامر وهي تشعر بأن قلبها قد عاد يقوم بوظيفته الطبيعية ويوزع الدماء إلى كل خلاياها ..

لم يكن ذلك لمجرد اللقاء به .. وإنما لما طلبه منها ...

فقد عرض عليها الزواج ..

فقد أخبرها بأنه قد أفاق من غفلته واهتدى إلى ربه .. ويسعى لإصلاح كل ما أفسد ... وضمن ذلك هي ...

وهي أدركت ذلك .. شعرت ورأت ملامحه الهادئة .. صوته الخافت .. غضه لبصره أثناء التحدث معها ...

وقتها لم تستطع التفوه .. فقد كانت المفاجأة تعقد لسانها .... مفاجأة ظهوره .. وذلك العرض الذي يعرضه عليها .. ظن هو أن صمتها للتفكير .. فأعطاها مهلة لتفعل .. ولم يكن يدري أن كل وجدانها يهتف بأن نعم .

وبينما هي منطلقة ... إذا ببصرها يقع عليه ..... إنه سامح .

الذي أقبل عليها وقال لها :

(( أرى الفرحة ترفع رايتها فوق ملامحك .. ترى ما الأمر ؟؟ ))

وإذا بصفعة قوية مدوية إحمر لها وجه سامح الذي نظر نحوها بذهول وقال :

(( هايدي !! ماذا دهاك ؟؟ هل جننت ؟! ))

قالت بصوت هادر : (( بل أنت أيها الوغد القذر الذي لا أريد وجهه بعد الآن ))

نظر إليها بغضب وقال :

(( ماذا حدث وما الأمر ؟! ))

قالت بانفعال : (( لقد أتي سامر ..... وسوف نتزوج ))

إتسعت عيناه في ذهول .. وظل صامتا للحظات .. وأخيرا قال :

(( ماذا ؟ .. كيف ؟ .. ألم يمت ؟! ))

قالت : (( يكفي أنه قد أتى وأني نزعت الطوق الذي كنت تضعه حول رقبتي .))

إبتسم بسخرية وقال :

(( أهذا ما جعلك تتصرفين معي هكذا ؟ .. ولكن الأمر ليس كما تعتقدين .. فقد أخذنا حذرنا لأمر كهذا .. ))

نظرت إليه وقالت بتردد وخوف : (( كيف هذا ؟؟ ))

قال بتهكم : (( إجراء روتيني يتم مع كل أعضاء الجمعية .. لابد وأن يكون لدينا صورا فاضحة ومخزية لهم .. وأنت على وجه الخصوص نملك شريط فيديو لك كفيل لأن يودي بك إلى الشمس التي لن تحرق سواك ..

لذا أقول لك .. تأدبي معي جيدا .. ومعاملتي لك ستتغير كثيرا ...

وأبلغي سلامي إلى سامر ... )) ..

والتفت منطلقا .. في حين كانت واقفة ذاهلة مشدوهة ...

وأخيرا سقطت مغشيا عليها .

كان المصعد يرتفع بسامر إلى الطابق الذي يوجد به مكتب أبيه في تلك الشركة الضخمة التي يملكها ..

كانت أول مرة يفعل ذلك .. فلم يحدث من قبل أن إهتم بوالده أو أعماله .

كان جل ما يشغله هو المصروف يناله منه ... وها هو قد تغير وتغيرت نظرته لأشياء كثيرة وقد بدأ يسعى لتغير الأجواء المحيطة به قدر جهده .

ولم يدر ما السبب الذي جعل فكره يتجه نحو هايدي !

تلك الفتاة المسكينة التي كان هو السبب الرئيسي في ضياعها .. لقد حاول أن يرأب الصدع .. ولكنها أبت في عناد عجيب .

كان يظن أن أمر كعرضه للزواج بها حتما سيسعدها .. ولكنه إكتشف العكس .

حاول جاهدا أن يجد سببا مقنعا لرفضها ولم يجد ...

حاول أن يذلل أمامها كل الصعاب التي قد تواجه ذلك .. ولكنها أيضا أبت .

وبعدما شعر أنه قد فعل ما يجب عليه نحوها .. إنصرف ذهنه عنها .

أفاق سامر من شروده حينما وصل به المصعد إلى الطابق الذي يبغيه .. وما إن إنفتح الباب حتى إتجه إلى مكتب أبيه الذي ما إن رآه حتى قال مندهشا :

(( سامر !! .. ماذا هناك ؟؟ ))

إبتسم سامر وقال بهدوء : (( لا شيء يا أبي .. فقد أردت أن أراك وأنت تعمل وأن أتحدث معك قليلا .. ))

لم يكن شاهين مصدقا لهذا الحديث وظن أن سامر حتما يريد شيئا ما .. فعاد بظهره إلى الخلف وقال :

(( خيرا .. ها أنا معك .. ولكن يجب أن تراعي وقتي فأنا منشغل للغاية .. ))

قال سامر : (( ألم تلحظ يا أبي أنك منشغل دائما ؟ ))

قال شاهين بتعجب:(وماذا في ذلك! فهذا هو طريق التفوق والرقي في كل مجال).

قال سامر: (( أعرف هذا يا أبي .. ولكني أقول : أشعر أن شغلك الوحيد هو جمع المال .. فلنفرض أنك حزت كل كنوز الدنيا .. ماذا بعد ذلك ؟ ))

قال شاهين : (( ماذا بعد ذلك ؟ .. كيف ؟ .. ماذا تقصد ؟؟ .. ))

قال سامر : (( أريد أن أقول يا أبي أن هذا المال الذي تعطيه كل جهدك من السهل أن يضيع في لحظة .. فلا تجعله كل غايتك ))

قال شاهين : (( أنت أيضا غايتي يا سامر .. إن أسعد يوم في حياتي يوم أن تتوج ملكا فوق هذه المؤسسة وترتفع بها رافعا اسمي معك .. ))

قال سامر : (( أيضا يا أبي ليس هذا هدفا كافيا .. فمن السهل أن تفقدني في لحظة .. ما المانع من أن أموت الآن ؟ .. وقد رأيت الموت رأي العين عند جبال الأقصر .. ))

قال شاهين بتساؤل : (( ماذا تريد من وراء كل هذه التساؤلات يا سامر ؟! ))

قال سامر بهدوء : (( أريد أن أقول يا أبي .. يجب أن تلتفت إلى الله عز وجل وتجعل رضائه أقصى أمانيك وهدفك الوحيد .... لا مانع من أن تسعى لطلب الرزق الحلال ... ولكن لا تنسى الله في غمرة إنشغالك .. فهو الباقي عندما يزول كل شيء... ))

قال شاهين : (( منذ أن عدت من الأقصر .. وبعد أن أطلقت لحيتك ... وأنت تتحدث بلسان هؤلاء المتطرفين .... ماذا حدث لك هناك يا سامر ؟؟ ))

قال سامر بانفعال : (( هل عندما أتحدث بقول الله وقول رسوله الكريم أكن من المتطرفين ؟! .. هل أصبحت كل الآيات والأحاديث النبوية أقوالا متطرفة ؟!))

تنهد شاهين وقال محاولا إنهاء الحديث :

(( إستمع إلي جيدا يا ولدي .. أريدك الآن أن تجتهد في دراستك ولتحصل على شهادتك .. وبعدها ستأتي هنا لتعاوني .. وقتها سترى الواقع وتعلم كل شيء ...

.. وعندها سأستمع لكل مقترحاتك .... ما رأيك ؟ ))

قال سامر : (( حسنا يا أبي .. وأنا أعدك بالنجاح المستمر على عكس السابق ..

وإن شاء الله سوف أكون عند حسن ظنك بي . ))

(( كيف حالك يا أنس ؟ لقد اشتقت إليك كثيرا ))

إنتقلت هذه العبارة من القاهرة إلى الأقصر عبر أسلك الهاتف فرد أنس قائلا:

ــ (( أنا بخير حال .. وأنت ياسامر كيف حالك ؟ ))

ــ (( الحمد لله بخير .. وما هي أخبار أسرتك الكريمة ؟ ))

ــ ((الجميع بخير ولله الحمد .. وأختي أماني قد تكون خطبتها يوم السبت المقبل إن شاء الله .. ))

إهتزت السماعة في يد سامر وقال مندهشا :

ــ ((ماذا ؟! كيف ذلك ؟؟ ))

قال أنس مندهشا ..

ــ (( ماذا هناك يا سامر .. هل هو عيب أن تتزوج ؟!! ))

قال سامر وقد خفت صوته كثيرا :

ــ (( أأسف يا أنس لا يوجد شيء ... مبارك لها ولزوجها ))

ــ (( الأمر لم يحسم بعد .. فهي لم تبد الموافقة وما زلنا ننتظر رأيها ))

شدد سامر قبضته على السماعة وقال :

ــ (( إستمع إلي جيدا يا أنس .. أختك هذه منذ أن رأيتها وأنا أشعر أنها النفحة الملائكية التي لن تكون حياتي سعيدة سوى معها ... أعلم أنها تكبرني بعامين ولكن هذا لا يهم فرسول الله تزوج السيدة خديجة وهي تكبره بكثير ... لذلك أقول لك يا أنس أشر عليها ... وإن رضيت بي سوف آتي ومعي أهلي في اليوم الذي ترغبونه لأتقدم طالبا الزواج بها .... ما رأيك ؟ ))

قال أنس بتردد : (( قولك هذا فاجئني بشدة يا سامر .. ولكن أعدك أن أخبر أبي به وهو سيضعه موضع التفكير وهي إن وافقت سأقول ... هنيئا لك ))

قال سامر :

ــ (( أشكرك بشدة يا أنس وسوف أعيد الإتصال بك لأرى ما الأمر .. ))

ــ (( كيف هذا يا سامر ؟!! إنه قول جنوني .. فق يا يا ولدي ..... لقد تعرفت على فتيات كثيرات فلا تجعل إحداهن تجهز على مستقبلك . ))

نطق بها شاهين في انفعال أثناء حديثه مع سامر الذي كان يطلب منه الموافقة على تقدمه للزواج بأماني ...

رد سامر بهدوء قائلا :

ــ (( هل تنكر يا أبي أني تغيرت كثيرا ولم أعد أفكر كالسابق ؟ ))

رد شاهين قائلا :

ــ (( لست أنكر التعقل الذي طرأ عليك .. ولكن يجب أن تنتبه إلى أنك ما زلت صغيرا ويجب أن تستمتع بمرحلة شبابك قبل أن تقدم على أمر كهذا ))

قال سامر ونبرة الحزن تغلف صوته :

ــ (( لقد أخذت من متع الدنيا ما أتمنى لو تعود الساعة للخلف كي لا أفعل ))

ــ (( حسنا فلننتظر حتى تنهي دراستك ))

ــ (( يا أبي لا يوجد مبرر للإنتظار .. فالحمد لله القدرة المادية متوفرة .... وفوق ذلك لو انتظرت لأبعد من الجمعة القادمة لفقدتها إلى الأبد .))

قال شاهين في حيرة (( لست أدري ماذا أفعل ))

قال سامر برجاء : (( أبي .. إنني ولدك الوحيد .. وهذه هي أمنيتي الوحيدة .. أرجوك لا تحطمها . ))

قال شاهين منهيا الحديث :

ــ (( حسنا فلتدعني أفكر حتى يوم الجمعة القادمة .. وإن كان لك نصيب سنستقل أول طائرة ذاهبة إلى الأقصر في ذلك اليوم .. ))

(( سامر هذا يجب أن يقضى عليه ))

نطق بها أحد أعضاء حورس أثناء جلستهم المغلقة التي تظللها كالعادة سحابة من الدخان القاتم ...

فقال الثاني : (( بالطبع هذا ... فقد كان بيننا ويعلم كل أسرارنا ... وبعد أن جذبه أعضاء التيار المتطرف إلى صفهم تغير تماما .. وها هو يعلن أنه سيصدر كتابا يبين فيه أعمالنا وكل أهدافنا . ))

فال ثالث : (( إنها ستكون فضيحة لو فعل .,. ))

قال سامح وقد كان أحد المتواجدين :

ــ (( لقد كاد أن يفسد لي إحدى عملياتي الخاصة .. ولهذا بيني وبينه ثأر لابد وأن أناله ))

قال رئيس الجلسة :

ــ (( حسنا لقد اتفقنا على ضرورة التخلص منه .. فماذا نفعل ؟ .. هل يعتقل ؟ ))

قال أحدهم (( لا .. إن هذا سيجعله بطلا .. ولن يمنعه من فعل ما يريد ))

قال سامح بحسم :

ــ (( لا يوجد حل سوى قتله .. ))

فقال الرئيس : (( ومن الذي سيفعل ذلك ؟ ))

قال سامح : (( أنا .. فقد ذكرت أن بيني وبينه ثأرا .. وهذه فرصتي لأناله . ))

قال الرئيس :

ــ (( حسنا .. ولكن يجب أن تأخذ حذرك جيدا .. وتفعل ذلك بحيث لا يكن هناك ذرة من شك تشير إليك ... لأنك لو وقعت ستكون فضيحة مدوية .. وفرصة لن تعوض للتيار المتطرف لينال منا . ))

قال سامح :

ــ (( إطمئن.. إنه واجبي . ))

إرتفع ذلك الصوت في بهو صالة الإنتظار بمطار القاهرة الدولي معلنا عن وصول الطائرة القادمة من نيويورك ....

مما دفع أحد الأشخاص ليقف ويتجه نحو باب الخروج .. وأخذ يرقب كل القادمين باهتمام حتى وقع بصره على أحدهم فاندفع إليه وسلم عليه بحرارة واصطحبه إلى إحدى السيارات ... وما إن وضع الحقائب بها حتى استقلاها وانطلقا ...

(( ماهي الأخبار يا سليم ؟ ))

نطق بها القادم من نيويورك .. فرد عليه سليم قائلا :

ــ (( المبنى الجديد يطل على النيل مباشرة وتزينه لافتة ضخمة وأنيقة تحوي اسم الشركة .. وكل العمالة متوفرة .. ولم يتبق سوى تسلمك المفاتيح والأعمال .. وبهذا يصبح أمرا طبيعيا أن تقوم بافتتاحها غدا .. ))

عاد القادم من نيويورك بظهره إلى الخلف وقال :

ــ (( رائع كل شيء يسير على ما يرام .. وغريمنا .. ما هي آخر الأنباء عنه؟))

رد عليه سليم قائلا :

ــ (( نحن على وشك الإيقاع بأحد رجاله المقربين .. وبعدها من السهل الحصول على ما نريد .))

قال القادم بتوعد :

ــ (( عظيم .. كلها خطوات بسيطة وبعدها أنال كل حقوقي .. وهذا الوغد سيعرف من أنا ...

لقد ظن أنه قد قضى علي عنما خدعني واستولى على الشركة بأكملها لنفسه ..

ولكن هيهات .. لقد علمتني ودربتني الحياة في نيويورك على مالم أتعلمه طوال حياتي ..

وليرتعد شاهين الدمنهوري فقد أتى شريكه القديم ........ ( عمر ).. ))

(( حسنا يا أبي وقسم المشتريات .. كيف يكون التعامل معه ؟ ))

تفوه سامر بهذه العبارة أثناء حديثه مع شاهين ... فهو قد اعتاد يوميا أن يبقى مع أبيه بضع ساعات ويحاول أن يفهم منه نظم العمل بالشركة .

كان شاهين يشعر بسعادة جمة لا مثيل لها ... فقد شعر أن لديه ساعد يعينه في أعماله وحائط يحميه عندما يحدث له مكروه ..

لأول مرة يزول عنه الشعور بالوحدة .. فقد كان دائما يشعر أنه يقاتل منفردا في الساحة ..

أما الآن .. فقد تمثلت له أقصى أمانيه أمام عينيه ...

فقد رزقه الله بالولد الذي يحمل اسمه والذي بدا عليه أنه سيرقى بشركته وأعماله

.. هم شاهين أن يجيب تساؤل ولده .. ولكن قطعت عليه طرقات الباب أن يفعل..

أذن شاهين للطارق بالدخول .. فإذا بسكرتير مكتبه يقف ويقول في ارتباك :

ــ (( هناك ضيف يرغب في مقابلتك يا سيدي .. ))

ــ (( هل لديه موعد سابق ))

ــ (( لا ولكنه ………. )) قطع عبارته ونظر نحو سامر وقال :

((ولكنه من الشخصيات الهامة التي تأتى دون مواعيد مسبقة ))

قال شاهين موجها الحديث إلى سامر :

ــ (( حسنا يا سامر كفانا هذا القدر اليوم .. وغدا سوف نكمل ما تبقى ))

قام سامر وقال :

ــ (( حسنا يا أبي ولكن أرجو ألا تكون قد نسيت الموضوع الذي أخذت مهلة لتفكر فيه ))

ــ (( يوم الجمعة لم يأت بعد .. واطمئن فأنا لا أنسى شيئا أبدا ))

سلم سامر على أبيه وانصرف ... في حين نظر شاهين إلي السكرتير وقال بصرامة :

ــ (( من هو هذا الضيف الذي يأتي دون مواعيد مسبقة ؟ ))

أتاه الصوت من عند الباب يقول :

ـــ (( إنه أنا ياشاهين ............ شريكك القديم ( عمر ) ... ))

كان سامر يهبط على سلالم الشركة .. فقد ترك المصعد وأراد أن يتقافز ويعبر عما يعتمل به أثناء إنطلاقه ...

كان يشعر أن الكون كله منسجم معه ..لأول مرة في حياته يشعر بالرضا ...

كان في السابق على الرغم من أنه يحصل على كل ما يريد ... إلا أنه دائما ساخط ورافض لكل ما حوله .. ويشعر باضطراب داخلي مستمر .

كان بالرغم من إنطلاقاته ونشاطاته يشعر أن الحياة ضيقة عليه ...

أما الآن ...

فقد تغير الحال تماما ... الحياة أصبحت رحبة ومتسعة لكل شيء..

الراحة النفسية تحتويه ... والشعور بالقلق ذهب إلى حيث لا رجعة ..

ولم يعد يرغب من الدنيا سوى شيئا واحدا ... إنها هي ....... أماني

تلك الفتاة التي هزت وجدانه واحتوت أحلامه ..

كم يتمنى أن يتزوجها ويسعد في حياته معها ....

ولكن ... ترى هل ترغبه هي أو توافق عليه ؟

إنه لا يعلم شيئا عما يراود خيالها وتفكيرها ..

على أية حال ..

سيذهب الآن إلى أنس ويتصل به ويعلم ما الأمر .

خرج سامر من باب الشركة وهم أن يعبر الطريق إلى الناحية المقابلة حيث ترتكن سيارته .... وإذا بصوت أحد الحراس يصرخ فيه :

ـــ (( إنتبه يا سيد سامر ... ))

نظر سامر بسرعة فإذا بسيارة سوداء تندفع مسرعة نحوه .. حاول أن يعود مسرعا .. ولكنها لحقت به وصدمته بجانبها .

وانطلقت مسرعة وقد تركته مضرج في دمائه الغزيرة .

(( هذه الوثائق كلها مزورة ))

نطق شاهين بهذه العبارة في إنفعال وهو يقلب الوثائق التي أعطاها له عمر في يديه ...

ضحك عمر وقال :

ــ (( كيف هذا يا شاهين ؟ .. صفقاتك لابد وأن يكون بها بعض الشبهة ))

ــ (( كان هذا فيما مضى .. أما الآن فأعمالي وصفقاتي كلها سليمة ونظيفة ))

ــ (( حسنا .. إنه شيء رائع .. ولكن فلتثبت أن هذه الوثائق غير حقيقية فهي تحمل توقيعك وأختام شركتك ))

قال شاهين في حيرة :

ــ (( هذا ما يجعلني على حافة الجنون .. كيف حصلتم على هذا التوقيع وتلك الأختام ؟!! ))

ــ (( دعك من هذه التساؤلات الآن ولنذهب إلى ما هو أهم ... بالطبع تعلم أن وثائق كتلك التي بين يديك كفيلة بأن تجهز عليك ...

ولكنني يا شاهين بالرغم من حياتي العصيبة في نيويورك .. بلد العصابات والصراع والقتال المستمر والتي لا يعيش بها سوى الوحوش ... بالرغم من كل هذا .. لم أتخل عن نزاهتي ولم أتلوث من مجتمعهم القذر ..

لذلك أقول لك .. هذه الوثائق أهددك بها كي أنال حقي الذي خدعتني وسلبتني إياه ... إن فعلت ثق تماما أني لن أحاول الإقتراب منك بعدها ..

وإن لم تفعل .. سترى وتعلم من هو عمر الذي نبتت له أنياب وأظافر ))

جفف شاهين العرق الغزير الذي كسى جبهته على الرغم من الجو المكيف بمكتبه .. وأخذ يتطلع إلى الوثائق غير مصدق لما بها ...

وأخيرا نطق وقال بصوت متحشرج : (( حسنا يا عمر .. كم تطلب ؟ ))

ابتسم عمر بظفر وقال :

ــ (( أنت تعلم يا شاهين أننا بدأنا الشركة مناصفة .. فلنتذكر كم كان رأس المال وقتها ؟ ))

ــ (( هل تعني أنك تريد نصف هذا المبلغ ؟ ))

ضحك عمر عاليا وقال :

ــ (( كان هذا وقتها أما الآن .. فمالي الذي سلبتني إياه قد ربح ونما .. وبالتالي لابد وأن أنال من تلك الزيادة وهذا الربح ))

قال شاهين وقلبه يدق في عنف :

ــ (( كم تطلب يا عمر ؟ ))

هم عمر أن ينطق ولكن قطع عليه الحديث دخول السكرتير مندفعا وهو يصيح :

ــ (( سيد شاهين .. سامر ولدك صدمته سيارة أمام باب الشركة ))

كانت سها تبكي في حرقة وهي تقول :

ــ (( ولدي يا شاهين .. كيف حدث له ذلك ؟ ))

كان شاهين يحتويه القلق والجزع والخوف وهو يطرق تلك الساحة التي تواجه غرفة العناية المركزة ذهابا وإيابا ..

فبعد أن علم بما حدث لسامر هبط إليه كالصاعقة وحمله إلى تلك المستشفى التي يعمل بها صديقه الدكتور ( خليل ) ..

وعندما طلبوا من يتبرع له بالدم حاول شاهين أن يفعل ولكن كانت فصيلته غير متوافقة معه ... وعندما أتت سها مسرعة منحته ما أراد من الدم فقد كانت فصيلتها متوافقة معه ..

ساعتان مرتا وشاهين وسها ينتظران والخوف مستبد بهما ..

قطع عليهما ذلك الإنفعال خروج د. خليل من الحجرة فاندفعت سها نحوه وقالت:

ــ (( ولدي يا د. خليل .. كيف حاله ؟؟ ))

تنهد د. خليل وجفف عرقه وقال :

ــ (( لقد تمزق طحاله بقوة أجبرتنا على استئصاله .. وبقية الإصابات الحمد لله تمكنا من تحديدها .. وإن شاء الله مع العناية به سيصبح في خير حال ))

تنهد شاهين في قوة وقالت سها : (( الحمــــــد للـــــــــــه ))

في حين نظر د. خليل نحو شاهين وقال له :

(( لا تقلق يا سيد شاهين .. سيصبح ولدك بخير إن شاء الله ))

(( أمي .. إني أحبك .. هل أنت راضية عني ؟ ))

نطق بها سامر في ضعف ووهن عندما أفاق ووجد أمه في مقابلته ...

لم تستطع سها أن تمنع دموعها وهي تقول :

ــ (( أنت حياتي يا سامر .. وأرضى عنك بكل وجداني ))

ــ (( الحمد لله .... أين أبي ؟ ))

ــ (( لقد انصرف منذ لحظات .. فقد استدعوه للإدلاء بأقواله في التحقيق الذي يجري لمعرفة من أصابك ))

ــ (( يخيل إلي أن من صدمني أعرفه جيدا فقد لمحت وجهه لوهلة ولكن لم أتمكن من تحديد من هو ؟ ))

ــ ((اطمئن ياولدي .. هذا المجرم حتما سيقع ولن نرحمه وقتها ))

ابتسم سامر بضعف وقال :

ــ (( هل تعلمين يا أمي ؟ .. إنها أول مرة أشعر أنك مهتمة بي وتحملين هذه العاطفة نحوي ))

ــ (( إنك ولدي يا سامر .. جذء مني فكيف تتصور عكس هذا ؟؟ ))

ابتسم سامر وأغمض عينيه وقال :

ــ (( الحمد لله رب العالمين .. ))

(( السيارة كانت شيفروليه سوداء .. والحراس العاملين على باب شركتك قالوا أنها لم تكن تحمل أرقاما ... فهل هناك من تتهمه يا سيد شاهين ؟ ))

نطق أحد ضباط الشرطة بهذه العبارة أثناء التحقيق الجاري بسبب الحادث الذي تعرض له سامر ..

فكر شاهين مليا .. خطر بباله أن يذكر أنه عمر .. ولكنه خير من يعلم أن عمر أبدا لن يقبل على أمر كهذا .. وفوق ذلك ففي أثناء الحادث كان عمر يجالسه والكرة في ملعبه ولا يلزمه أمر كهذا .. وحتى لو كان عمر نفسه من فعل فلن يستطيع شاهين أن ينطق لأن رقبته الآن معلقة بين يديه .

هز شاهين رأسه نافيا وهو يقول :

ــ (( لا .. ليس هناك من أتهمه ))

ــ (( حسنا سنحاول ضبط هذه السيارة وبعد أن يفيق سامر سنستمع إلى أقواله فقد يكون هناك من يهدده من معارفه ))

أنهى شاهين التحقيق وخرج من قسم الشرطة واستقل سيارته وانطلق بها إلى مكتبه بالشركة ... وأخذ عقله يدور ويموج بالأفكار ...

ماذا يحدث ؟ وماذا دهاه ؟؟

فجأة انهالت عليه المصائب من كل صوب ..

عمر .. إصابة ولده .. والله أعلم ماذا هناك ... إنه يذهب إلى الشركة ويخشى أن يستقبله خبر خسران إحدى صفقاته خسرانا مبينا .. فالخسائر عندما تطرق الباب إنما تدخل تباعا بلا توقف ...

منذ زمن طويل لم يتذوق شاهين طعم الخسائر المرير .. وها هو فجأة يتجرعه بقسوة .

ما إن وصل إلى مكتبه واسترخى على كرسيه حتى أخذ يفكر في أمر عمر ...

إنه يثق بنزاهة عمر ويعلم أنه ما من شيء ليغيرها .. ولكن من الواضح أنه قد عاد وقد أبصر الحياة على حقيقتها .. وها هو قد عاد ليطالب بحقه ..

إنه لا ينكر أن خدعته كانت دنيئة عندما سلبه كل ما يملك وتركه وحيدا بلا شيء

كان شاهين منذ زمن قد هجر تماما تلك الصفقات المشبوهة وأصبحت أمواله كلها تأتي من المصدر السليم ... ولكن كان أمر عمر هو الشوكة التي تنغص عليه حياته ... وها قد حان الوقت لينتزع تلك الشوكة

ربما كانت نجاة ولده من هذا الحادث إشارة لأن يفعل ويتخلص من هذا الدين الذي يطوق عنقه .. وكذلك لينتهي من تهديد عمر الذي لا يجد منه فكاكا

ــ (( كيف حالك يا عمر ؟ .. إنني شاهين ))

نطقها شاهين عبر الهاتف فور أن طلب عمر لينهي ذلك الأمر فرد عليه عمر :

ــ (( شاهين !! .. كيف حال ولدك ؟ ))

ــ (( الحمد لله ما زال على قيد الحياة ... أخبرني يا عمر كم تريد مني ؟ ))

أخذ عمر بهذا القول فلم يكن يتوقع أن يخضع شاهين بمثل هذه السرعة فقال :

ــ (( استمع إلي يا شاهين فلست أريد أن تكون حادثة ولدك ذات أثر فيما نقول))

قاطعه شاهين قائلا بحسم :

ــ (( كم تريد ياعمر ؟ .. أريد أن أنتهي من دينك الذي يطوقني ))

بهت عمر بهذا القول فقد شعر بصدق شاهين التام فيما يقول فتنحنح وقال :

ــ (( حسنا يا شاهين .. لقد كانت الشركة مناصفة بيننا .. وأنت أخذت كل أموالي وارتفعت بها الشركة .. وبهذا أقول سنقوم بتقييم رأس مال الشركة الآن ... وأريد نصفه . ))

ــ (( حسنا فلتأت لتصفية هذا الأمر يا عمر ))

ألقى شاهين سماعة الهاتف فور نطقه بهذه العبارة ومد يده ليفك رباط عنقه وأخذ يجفف عرقه الغزير ... وضربات قلبه قد وصلت إلى أقصى قوة لها .

(( الحمد لله لقد تحسنت حالته كثيرا .. وإن شاء الله سيصير إلى الأفضل ))

تلفظ د. خليل بهذه العبارة أثناء حديثه مع سها وشاهين بعد قيامه بفحص سامر

أمسكت سها بيد ولدها وقالت له :

ــ (( الحمد لله الذي عافاك يا ولدي الحبيب ))

نظر سامر نحوها وقال :

ــ (( عيناك متورمتان للغاية يا أمي .. ألم تنمي بعد ؟ ))

تحسست سها عيناها وقالت فزعة .. (( حقا !! .. كيف هذا ؟؟ ))

ثم استدركت قائلة : ـــ (( ولكن لا يهم يا حبيبي .. المهم أنك بخير ))

نظر د. خليل إلى شاهين وقال له :

ــ (( أريدك في حديث خاص يا سيد شاهين ))

تبعه شاهين إلى مكتبه وبعد أن استقر بهما المقام .. عقد د. خليل يديه أمام صدره وقال :

ــ (( في الحقيقة يا سيد شاهين أنني لست أجد ما أبدأ به الحديث معك ))

تسائل شاهين قائلا :

ــ (( ما الأمر ؟ هل توجد مشاكل بشأن مصاريف العلاج والإقامة بالمستشفى ؟))

هز د. خليل رأسه نافيا وهو يقول :

ــ (( مطلقا .. ولكنه أمر آخر ))

ــ (( ما الحدث ؟! ))

تنهد د. خليل وقال :

ــ (( حقيقة لقد كنت أريد أن أترك الأمر ليسير كما هو ولتدوم الحياة كما بدأت ..

ولكن لأنك صديق أثير لدي .. تحتم علي أن أخبرك ))

قال شاهين وقد احتوته الدهشة :

ــ (( لست أفهم شيئا !!! ))

قال د. خليل حاسما الأمر :

ــ (( خلاصة الأمر ... أن سامر هذا من المستحيل أن يكون ولدك ))

ارتعشت كل حواس شاهين وقال بحدة :

ــ (( ماذا تقول يا د. خليل ؟!! .. وكيف هذا ؟؟ ))

ــ (( إهدأ يا سيد شاهين وسوف أشرح لك كل شيء ....

فصيلة دمك ( AB ) وفصيلة دم زوجتك ( O ) إذن لابد وحسب أبسط النظم الوراثية أن تكون فصيلة دم ولدك إما ( A ) .. أو ( B ) .. أما أن تكون ( O ) فذلك هو المستحيل بعينه .. وهذه حقيقة طبية يعلمها حتى طلبة المرحلة الثانوية ...... وسامر فصيلة دمه ( O ) ... أخبرني أنت ما هو تفسير ذلك ؟ ))

اسودت الدنيا فجأة أمام عيني شاهين ولم يستطع سوى أن يتفوه بكلمة :

ــــ (( مــســتـــحـــيــــــــل ..... ))

دوى صوت صفعة قوية تردد صداها بالمنزل وتبعه صوت شاهين الهادر وهو يقول :

ــ (( أيتها الفاجرة اللعينة ... أعطيتك الحرية لتتنزهي وتسهري كيف تشائين .. وليس لتقومي بخيانتي ))

تناثر شعر سها على وجهها وانتثرت دموعها في قوة وهي تقول :

ــ (( صدقني يا شاهين هناك خطأ ما .. أقسم لك أنه ولدك ))

صرخ شاهين قائلا :

ــ (( كفي عن القسم كفاني خداع كل هذه السنوات الطويلة الماضية ...

إنني لم أبخل عليك بشيء .. جعلتك تتابعين حمله مع أعظم أطباء النساء

والتوليد في مصر .. وأقمت حفلة بمناسبة مولده تحدثت القاهرة بأكملها عنها

وأنفقت عليه أموالا طائلة ... وكل يوم يمر في عمري يهتف بي أني مخدوع

وأشبه بالدمية . ))

كانت سها تستمع إليه ولا تستطيع أن تجيب فالحجة أقوى منها ومن قولها ...

ولكن عبر حديثه تذكرت أمرا ما جعلها تهتف في قوة :

ــ (( شاهين .. هذا الولد ليس ولدك ولا ولدي أيضا ))

قال شاهين في سخرية :

ــ (( بالطبع لأنك لم تحملي به .. أم أي خدعة أخرى تريدين خداعي بها ؟! ))

قالت سها بانفعال :

ــ (( أقسم لك يا شاهين أني صادقة .. إنه د. علام .. لقد أتاني يوم الحفل وأخذ يسألني أسئلة عجيبة ومريبة ولقد أخبرتك بذلك وقتها .. فقد أخذ يقول لي ( هل تدركين ولدك إذا أبدلته بآخر ؟ ) .. أقسم لك يا شاهين أنه حتما قام بإبدال وليدنا بآخر في أحد أبحاثه اللعينة ))

عقد شاهين حاجبيه في قوة وقد تذكر قول د. علام عندما أراد أن يوثق الصلة معه .. وأنه يعد لبحث ما ويريد أن يعلم كل شيء عن ولدهما ... إنه يذكر ذلك جيدا .. فهل يعقل أن يكون قد أبدل ولدهما الحقيقي بآخر ضمن خطوات هذا البحث ؟؟ ... إنه يتمنى أن يكون ذلك قد حدث .. فأن يكون ولده قد أبدل بآخر أهون آلاف المرات من أن تكون زوجته خائنة له .. بل هو أيسر بكثير من ان يتحطم الحلم الذي يملأ كيانه بأن يأتي ولده الذي يحمل اسمه وأعماله وشركاته ..

نظر إليها وقال :

ــ (( أدعوا الله أن يكون ذلك صحيحا .. وسوف نرى .. فأمثال هذا الرجل يدونون خطوات أبحاثهم .. وحتما كل شيء مدون عنده في أوراقه .. سنذهب إلى ورثته ونرى ))

(( هاهي مكتبته .. بها كتبه ومراجعه وأبحاثه .... لم يدخلها مخلوق منذ أن قتل .. فقد كان مصرعه بها ))

نطق أحد ورثة د. علام بهذه العبارة لشاهين وزوجته .. كان شاهين قد شرح له كل شيء حتى يقدر الأمر ويأذن لهما بما يريدان ...

توجه شاهين ببصره نحو المكتبة وأخذ يتطلع مشدوها إلى محتوياتها وقال :

ــ (( يا الهي .. كيف نصل إلى بغيتنا وسط هذا الجبل المهول ؟! ))

ــ (( حقيقة لست أدري .. ها هي أمامكم .. فلتبحثوا كما تشائون ووقتما تريدون))

ــ (( ألا تعرف ما هي طريقته في ترتيب أبحاثه ؟ ))

ــ ((مطلقا.. ولكن ما أعرفه أنه دائما يضع وريقات بحثه الأخير في درج مكتبه))

قال شاهين بفرحة :

ــ (( بالطبع هذا ما نبحث عنه .. إنه بحثه الأخير .. فقد مات بعد ولادة ابننا بأسبوع .. ))

ــ (( حسنا .. سأذهب لآتي لكم بمفاتيح درج المكتب )) وتركهما وخرج ..

وضعت سها يدها فوق قلبها فوجدته يدق في عنف وأخذت تتمتم بكلمات لم يسمعها شاهين ... في حين كان الأخير يتوجه بكل كيانه داعيا الله عز وجل أن يجد ما يتمنى ...

دخل الرجل ومعه المفاتيح واتجه بها نحو درج المكتب .. تبعه شاهين ببصره فوجده قد فتح الدرج ونظر ببصره إلي داخله .. وأخيرا أخرج يده وبها دوسيه أزرق اللون به بضع أوراق ..

تناوله منه شاهين في لهفة وفتحه وأخذ يقلب الوريقات ويقرأما بها وبسرعة .. وأخيرا تنهد وقال :

ــ (( الحمـــد للـــــه ... ))

قالت سها في لهفة :

ــ (( ماذا وجدت يا شاهين ؟؟ ))

نظر شاهين إليها وقال :

ــ (( أأسف بشدة يا سها لما خرج مني نحوك ... لقد تم التبديل فعلا ))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(( لقد حجزت لك ولوالديك ثلاثة تذاكر فى الطائرة المقلعة من عندكم غدا .. ))

نطق شاهين بهذه العبارة محدثا بها أنس.. فقد أخذ شاهين جميع بيانات يحيى من الملف الخاص بدراسة الدكتور علام واتصل به فرد عليه أنس .. فذكر له العبارة السالفة ..

رد أنس مندهشا :

- (( ألست السيد شاهين الدمنهورى والد سامر ؟! ))

عقد شاهين حاجبيه قائلا :

- (( ماذا ؟! .. هل تعرف سامر ؟ ))

- (( بالطبع لقد مكث معنا شهرا عند اصابته هنا بالأقصر .. ولقد طلب منى مطلبا .. وكنت أنتظر مكالمته لأرد عليه ))

أخذ شاهين ودهش وقال :

- (( يا الهى يالها من أقدار !! حسنا يا ولدى .. إننى أحدثك لأمر بعيد تماما عن مطلب سامر وسوف أقوم بحجز تذكرة رابعة لأختك .. وهذه التذاكر سوف تصلكم غدا بالبريد العاجل .. و أخبر والدك أن الأمر بالخطورة التى تجبره على أن يترك العالم كله ويأتى .. ))

- (( ما هذا الأمر ؟؟ !! ))

- (( لن أستطيع شرحه مطلقا .. ولكن ثق أنه يجب أن تأتوا جميعا .. ))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كان سامر قد نقل من المستشفى الى المنزل بعد أن بدأت صحته فى التعافى .. ولم يكن يعلم شيئا مما حدث ولكن منذ لحظات شرح له شاهين كل شيء ..

كان سامر مندهش أيما اندهاش ..

فالمفاجأة قد أخذت لبه .. و أعجزت لسانه عن النطق .. وأخيرا قال :

- (( هل تقصد أن الاستاذ يحيى أبى .. و أمانى هى أختى ؟!!! يااله الكون هل تعلم أنها هى الفتاة التى كنت أرغب فى الزواج بها ؟ ))

تمتم شاهين قائلا :

- (( أعلم يا ولدى .. لذا طلبت أن تأتى هى الأخرى .. ))

نظر سامر نحو شاهين وقال :

- (( ولكن يا أبى .. أعذرنى لن أستطيع نزع كلمة أبى من لسانى .. سأظل أناديك بها .. ولكن كيف ؟؟ إنك أنت إننى أحبك وأتعلق بك وكذلك أمى ..

هل تعلم أنه لو تم اكتشاف هذا الأمر قبل أن يهدنى الله عز وجل الى طريقه القويم لطرت فرحا وطربا ..

لقد كنت أكره كل شيء حولى بما فيهم أنت وأمى .. وكنت أتمنى التغيير …. ولكن بعد أن عرفت واهتديت الى قيمة الأب والأم وكيف وصانى الاسلام بهما بعدها بدأت أنظر نحوكما نظرة مختلفة .. ومن يومها و أنا أتعلق بكما و أصبحت لا أتخيل الحياة بدونكما ..

نزلت دمعة من عين شاهين وقال :

- (( أقسم لك يا ولدى أننى لا أتخيل أن تذهب وتتركنى لقد نشأت بين يدى ورأيتك ورعيتك منذ أن كنت رضيعا .. إلى أن أصبحت شابا يافعا

لست أنكر أننى كنت أنشغل عنك كثيرا ولكنى كنت معك دائما بوجدانى وبعد أن أتيت لتعاوننى فى الشركة شعرت أن حلمى قد تحقق وأننى قد نلت ما أريد … ولكن فجأة تنتزع منى.. أقسم أنى أشعر بمرارة لا مثيل لها .. ))

نطقت سها قائلة ودموعها تسيل على خدها :

- (( انك ولدى يا سامر .. فقد أرضعتك وحميتك فى حضنى وأحمل لك بقلبى من المشاعر ما لا أستطيع ذكره … فأرجوك ألا تنسى أمك أبدا وتزورنى باستمرار .. ))

ابتسم سامر وقال :

- (( اطمئنى يا أمى .. كيف أنخلع من وسط أسرتى التى ربتنى ؟؟ !! .. إننى إن فعلت بجسدى .. فلن يكون بروحى أبدا … ))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

أخذت سها تتطلع الى أنس فى انفعال … كان قوى البدن … ملامحه تحمل رجولة الصعيد .. وعيناه تحملان أدب الدنيا كلها ..

مدت يدها لتحضنه وهى تقول :

- (( ولـــدى حبيــــــبى ……. ))

لم يستطع أنس أن يتحرك قيد أنملة .. كان ينتابه شعور عجيب غريب لم يلمسه من قبل … بل ربما لم يحدث هذا لبشرى من قبل …

فجأة وبدون سابق انذار يجد ويفاجأ بأن أهله ليسوا أهله !!!! …

أمه التى أرضعته وحمته ورعته إلى أن شب … ليست أمه !!

أباه الذى منحه كل رعاية وتعليم وتأديب …. ليس أبيه !!

أخته التى نعم معها بأجمل أخوة وصحبة … ليست أخته !!

كيــــف هــــــذا ؟؟!!!

وهذه التى تمد يدها لتحضنه … إنه لا يستطيع التخيل أنها أمه ..

مشاعره ترفض فى عنف .. ونفسه تأبى فى قوة ..

أعاد أنس يدها فى رفق وقال :

- (( أستمحيك عذرا .. فلست أستطيع .. ))

قال شاهين :

- (( إنها أمك يا أنس ))

نظر أنس نحوه ..

حاول أن يتخيل أن هذا أباه .. ولكن لم يتمكن

هل يعقل أن تكون هذه المشاعر فى البداية فقط ؟؟؟

وهل ستسير الأمور بعد ذلك على ما يرام ؟

نظر نحو يحيى و أسماء …

كانت أسماء باكية ولم تستطع أن توقف نشيجها .. ويحيى صامت فى حزن

شعر أنس أن ملامحهما قريبة إلى نفسه ..

شعر نحوهما بانجذاب ..

نعم هؤلاء هما أبواه ….

كيف ؟؟!! ….. كيف ينتزع منهما فجأة ويذهب إلى آخرين لا يستطيع تقبلهما بمشاعره ؟؟؟!!

هتـــف قائــــــلا :

- (( لعنة الله على الأبحاث التى تجعل البشر فئران تجارب … لقد خلق الله الانسان وكرمه .. وسخر الكون كله لأجله .. فكيف نجعله ميدانا للأبحاث والتجارب ؟؟ ..

إن هؤلاء الذين يفعلون ذلك من استنساخ وتبديل وغيره … إنما يعبثون بخلق الله عز وجل .. ويحطمون المشاعر الجميلة التى وضعها سبحانه فى البشر لينعم الإنسان بحياته .. ))

قال شاهين برجاء :

- (( ما قولك الآن يا أنس يا ولدى ؟؟ ))

نظر أنس نحوه وقال بنبرة مريرة :

- (( سيد شاهين .. أذكرك بقصة الصحابى الجليل زيد بن حارثة .. عندما أتى أهله ليأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان مولى عنده … خيره المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن يبقى معه أو يذهب إلى أهله …فاختار رضى الله عنه أن يبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأنه لقى معه مالم يجده من كل بشر الدنيا …..

أقول لكم أنى سأفعل مثله … إننى لا أستطيع التخلى عمن ربونى و أنشأونى … وشخصيتى ووجدانى إنما أنا مدين لهما بهما . ))

قال شاهين فى جزع :

- (( ولكننا أبواك يا أنس !! ))

قال أنس فى حيرة :

- (( لا أستطيع تقبلكما ))

قال شاهين :

- (( سيكون هذا فى البداية فقط .. وبعد ذلك ستعتاد الأمر وستأتيك المشاعر التى تبحث عنها ))

قال أنس :

- (( إننى لا أتخيل هذا …. ))

نطق يحيى بعد طول سكون وقال :

- (( اعلم يا أنس يا ولدى أن انتزاعك منى .. إنما هو انتزاع قلبى و أحشائى من داخلى … ولكن …

يجب أن ترضى بالأمر الواقع .. فشرعا وقانونا يجب أن تعود لهما

واصبر وإن شاء الله سيجزيك سبحانه وتعالى خير الجزاء … فالمؤمن .. حتى الشوكة يشاكها له بها صدقة .. ))

احتضن أنس يحيى وقال :

(( كم أحبــــــك يا أبـــــى ))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

كانت أمانى جالسة بجوار سامر وهو ما زال فى فراش المرض .. قالت له :

- (( هل كتب علينا ألا نلقاك إلا و أنت مصاب ؟ ))

ابتسم سامر وقال :

- (( إننى على أتم الاستعداد أن أصاب كل يوم بحادث .. إن كان هذا ما يجعلنى أراك . ))

نظرت أمانى الى الأرض بخجل وقالت :

- (( كفاك لباقة أيها الشقى ))

ضحك سامر وقال :

-(( يا الهى .. كم انت رائعة الجمال و أنت خجولة .. لم يكن عجبا أن أقع فى هواك وأحاول التزوج بك ))

نظرت أمانى نحوه وقالت :

(( هل أنت سعيد يا سامر بأنى أختك و أن أبى وأمى هما أبواك ؟؟ ))

رد سامر مسرعا :

- (( بالطبع .. فمنذ أن كنت عندكم و أنا أتمنى لو كنت نشأت فى هذه الأسرة .. ولم أتوقع أن يحقق الله عز وجل أمنيتى بهذه السرعة . ))

شردت أمانى وقالت بحزن :

- (( مسكين هو أنس أخى .. فأنت أسعد حظا منه .. أما هو .. سيذهب الى قوم لم يألفهم أو يعرفوه … إننى لا أتخيل نفسى موضعه أبدا . ))

نادى سامر عليها قائلا :

- (( أمـــانـــــــى …… ))

نظرت نحوه متسائلة … فقال :

- ((كلمة يهتف بها وجدانى ………. أحبــــــــــــك . ))

ابتسمت أمانى ولم تجب .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

نظرت أسماء نحو سامر وقالت :

- (( لقد أحببتك .. ولم يجل بخاطرى أبدا أنك ولدى .. ))

ابتسم سامر وقال :

- (( أما أنا..فحنانك أخبرنى أنك أمى و أنت يا أبى ما هو شعورك نحوى ؟))

ابتسم يحيى بوقار وقال :

- (( أقسم لك يا ولدى أنى أحب الكون بأكمله بما فيه .. و أتمنى لجميع البشر السعادة فى الدنيا والآخرة .. وكان حبى لك من هذا المنطلق .. أما الآن وقد علمت أنك من صلبى .. بالطبع ستختلف نوعية هذه المشاعر كثيرا . ))

هم سامر أن ينطق .. و إذا بدخول شاهين يقطع عليه حديثه …

نادى على شاهين و أسماء وقال لهما :

- (( أريدكما لمفاجأة مذهلة …. ))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

- (( لقد كنت خارج المنزل عندما أتى السيد شاهين هو وزوجته ليبحثا فى أوراق د. علام … ولم أدر بما حدث سوى أمس .. فقد كان مخدومى يتكلم فى هذا الحدث مع زوجته أمامى … وعرفت ما الأمر .. وتحتم على بأن آتى لأحسم كل شيئ و أعيد الأمور الى نصابها .. ))

نطقت أم حسين بهذه العبارة ليحيى وأسماء .. فى حين كانت سها تبكى بصمت فى أحد جوانب القاعة .. وشاهين منهار تماما على أحد المقاعد …

قال يحيى متسائلا :

- (( أية أمور هذه التى تريدين إعادتها الى نصابها ؟؟ ))

قالت أم حسين :

- (( لقد فقدت جنينى الوحيد قبل أن يكتمل … فقد كان فقده بالنسبة لى فقدا للحياة وسر الوجود بها …

وفى يوم الولادة التى تمت لولديكما أنس وسامر طلب منى د. علام أن أترك الولدين بلا إعتناء فور ولادتهما واهتم هو بهما على غير العادة .. وكان هذا أمرا غريبا بالنسبة لى وأثار فضولى بشدة لمعرفة غايته .. مما جعلنى أترقبه لأرى ماذا سيفعل بهما .. ورأيته وهو يبدل الولدين كل فى موضع الآخر .. واعتقدت أنه يفعل هذا حتما لأمر ما فى أحد أبحاثه .. ولكن لأنى جربت مرارة فقد الولد لم أتحمل أن يتذوقها غيرى … فقلت لنفسى ( فليفشل أحد أبحاث د. علام ولكن لا تشقى عائلتان بسبب نجاحه … فظللت ساهرة فى هذه الليلة إلى أن نام الجميع ….. ثم أبدلت و أعدت كل طفل إلى أمـــه الحقيقيــــــة . ))

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

(( أقسم لك يا شاهين أنها كانت مرة واحدة فقط فى لحظة ضعف ولم تتكرر أبدا .. ولم أكن أتخيل أن ولدنا منها . ))

نطقت سها بهذه العبارة وهى شبه منهارة …

انتفض شاهين فى قوة وقال :

- (( لا تقولى ولدنا .. إنه ولدك وحدك .. ))

قالت سها برجاء :

- (( شاهيـــن …. أرجـــــــوك …. ))

قاطعها وهو يهدر قائلا :

- (( أنـــــت طالــــــــــق … ))

شهقت فى عنف وقالت :

- (( شاهيــــــن ….... ))

قاطعها وهو يصيح :

- (( أخرجى و أغربى عن وجهى قبل أن أقتلك .. هيا ابتعدى عنى .. لا أريد أن أرى وجهك القبيح ))

خرجت سها وقد تهدل كتفاها وانكمشت ملامحها وانطلقت وهى تجر أذيال الحزن والألم ..

فى حين إرتمى شاهين على المقعد وفتح قميصه و أخذ يشهق فى عنف …

كانت الدماء تغلى فى كل كيانه وتلون كل شيء أمامه باللون الأحمر …

هاهو قد خسر كل شيء فجأة .. وانهار بيته بدون سابق انذار ….

فقد نصف ثروته فى لحظة ..

وفقد الولد بأبشع طريقة ممكنة فى أقل من اللحظة …

ارتج المنزل بعنف عندما صرخ شاهين بقوة وهو يقول :

- (( لا ))

وسقط مغشيا عليـــــــــــه .

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

جبــــــــــال الأقصــــــــــــر...

ما زالت كما هى منذ أن خلق الله الأرض وما عليها ...

ما زالت قوية راسخة شامخة .. شاهدة على ما يحدث أمامها ومبصرة له ..

ما زالت الظلال التى تكونها كما هى لم تتغير منذ نشأتها مع نشأة الأرض والشمس …

وان كان هناك ظلان جلسا متجاورين فى لحظة الغروب ..

كانت الشمس تميل الى المغيب وقد تلونت السماء حولها بلون أحمر دموى كأنه نزيفها قبل أن تلقى مصرعها وتذهب …

نطق أحد الظلين قائلا :

- (( ما أجملها من لحظة .. لحظة غروب الشمس .. لو تفكر فيها الانسان وعلم أنه حتما سيأتى يوم تغرب فيه شمس حياته .. ما فعل شرا أبدا ))

نظر الظل الثانى نحو الأول وقال :

- (( حقيقة إنك برومانسيتك ومشاعرك الفياضة هذه .. أعطيتنى معنى آخر للحياة يا أمانى . ))

لقد كانا سامر و أمانى .. بعد أن عقد قرانهما …

فمنذ أن اهار كل شيء بالقاهرة ..

تنكر والد سامر الحقيقى له وقال بأن سها إنما تدعى وتحاول الصاق إحدى جرائمها به …

وحينهـــــــا …

أدرك سامر أنه لم تعد له حياة بالقاهرة ..

وتذكر المبلغ الضخم الذى وضعه شاهين باسمه فى أحد البنوك عند مولده .. ذهب الى شاهين ليرده اليه لأنه لم يعد حقا له …

ولكن الأخير تنازل له عنه ..

وبهذا المبلغ توجه سامر الى الأقصر وبدأ بها أحد المشاريع الصغيرة التى تدر عليه ربحا ثابتا ….

ونال أغلى أحلامه عندما عقد فرانه على أمانى …

يالها من عائلة كريمة أصلها طيب ..

كان ضائعا بلا أب ولا أسرة ….

كان شاردا بلا هدف أو أمل .. ولم يكن هناك شيئا ليعيد اليه الحياة سوى زواجه بأمانى … ولم يبخلوا عليه بها .

كان عقلهم متفتحا لأعلى درجة .. ولديهم فهم للإسلام أعمق مما يتصور ..

لم يعلقوا على أصله …. إنما قالوا :

- (( قال رسول الله صلى اللع عليه وسلم .. إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه …. ))

وتم له ما أراد….

و أخيرا سارت الحياة به كما تسير بغيره …

نظر سامر إلى أمانى وقال :

- (( هل تعلمين يا أمانى ؟ .. إننى أعد ميلادى الحقيقى عندما امتن الله عز وجل على وهدانى .. وقد كان ذلك هنا .. بين أحضان جبـال الأقصـر ))

تمـــت بحمــد الله

بقلم د. أحمد مراد

Ahmedmorad2000@hotmail.com